





وطن بالفلفل الأحمر

حكم البابا

الغاوون

لوحة الغلاف: علي فرزات

تصميم الغلاف: هاني شرف

حكم البابا

وطن بالفلفل الأحمر

الطبعة الأولى آذار 2007
الطبعة الثانية أيار 2013



الطبعة الثانية، 2013

لبنان، ص. ب: بيروت - الحمرا 113 - 5626
تلفون: 0096171573886
U.S.A: 13112 W. Warren Ave, suite 9
Dearborn MI 48126
Fon:0013134361192

zeinab@alghawoon.com
www.alghawoon.com

الصحافي هو مؤرخ اللحظة

ألبير كامو

إلى...

أبي عبد الرزاق البابا

وصديقي سمير قصير

أُسدِّد جزءاً من دينهما...

وأُحصِّل شيئاً من حقهما...

لماذا أعتبره وطناً بالفلفل الأحمر؟

كان يمكن لي أن أُسمِّي هذا الكتاب: محاولات انتحار، لأنه التوصيف الأكثر دقة لمضمونه، فكثير من المقالات المنشورة فيه، تشبه تناول 30 قرصاً من الفاليوم دفعة واحدة، أو رمي الجسد من الطابق الثامن عشر، أو إطلاق رصاصة في الفم، في المكان الذي كتبت فيه ولأجله، في الوقت الذي قد لا يرى فيها قارئ من مكان ثانٍ أكثر من أضحوكات صغيرة على أوضاع شاذة. أما هنا حيث يولد البشر باعتبارهم بدلاً عن ضائع، ويعيشون باعتبارهم أصفاراً على الشمال، وتعامل حياتهم برخص واستهتار كما لو أنها كمشة من الليرات التركية، ويموتون على طريقة إغلاق رصيد فارغ في البنك، وتدار فيه الحياة كما لو أنها دورة تحضيرية لدخول نار جهنم، ويعتبر فيه التقرير الأمني أرقى أنواع الكتابة المعترف بها، ويشعر فيه الكاتب بالرعب لا بالفرح لوضع نقطة في نهاية مقاله، فإن مقالات هذا الكتاب أقرب إلى يوميات لهذا الوطن، منها إلى محاولات انتحار شخصية، ولذلك اخترت أن أُسمِّيه (وطن بالفلفل الأحمر).

لم أكن أتصوّر في يوم من الأيام أن الكتابة ستغيّر مجرى حياتي، أو تخربط مسارها، ولطالما اعتبرت أن أقسى عذاب يمكن أن يعيشه الكاتب هو خلال عملية كتابته لمقاله، وأمرّ تحقيق معه هو ذاك الذي يجريه القارئ مع أفكاره وصياغاته، وعلى الرغم من كل نظرات الغضب التي واجهتها، والجهات الأمنية التي أجبرت على زيارتها، والتحقيقات المخابراتية التي أخضعت لها، بسبب أكثر من مقال، لم يخطر لي في لحظة من اللحظات أن أغادر بلدي، إلى أن جاء اليوم الذي أجبرتني فيه مقالتان منشورتان

في هذا الكتاب على مغادرته، دفاعاً عن حريتي واستقلاليتي، وأجبرتني مقالات أخرى على العيش بعيداً عنه صوناً لهذه الحرية، ودفاعاً عن تلك الاستقلالية، طالما أن التعريف الأمثل للمواطنة هو الشعور بالذنب، والصورة المثلى للمواطن هي صورة عقب سيجارة مطفأ في منفضة سجائر.

موضوع هذا الكتاب ليس السياسة، وإن كانت موجودة فيه، وليس الاعلام، وإن طاغياً عبر صفحاته، وليس السخرية، وإن كانت تتردد في بعض جمله، موضوع هذا الكتاب هو الوطن الذي بدّل وظيفة استخدام كل اكتشافات واختراعات البشر التي أوجدوها لتسهيل حياتهم، إلى وسيلة لتنغيصها، فحوّل الكرسي من مكان للراحة إلى آلة لقصم ظهورهم، وعجلة السيارة المطاطية من وسيلة لتيسير انتقال البشر إلى فتحة لحشر رؤوسهم وأرجلهم فيها ليتسنى ضربهم، والكهرباء من طاقة لإنارة لياليهم إلى سلكين للسع أجسادهم، وبدل أن يكون وطناً بالجبنة أو بالزعتر أو بالدجاج تحول إلى وطن بالفلفل الأحمر يدمع العين ويلهب الفم ويحرق الأصابع.

وإذا كان لي طلب لدى قارئ هذا الكتاب فهو ألاّ يقرأه باعتباره كاتالوجاً عن جهنم، وإنما حالة حب لوطن وإن بالفلفل الأحمر، وأي قسوة في أي من مقالاته مردّها إلى الرغبة في أن يتحول شعار العيش فيه من أن يموت مواطنه ليحيا هو، إلى أن يحيا مواطنه ليحيا.

لماذا «أنا سوري يا نيّالي»؟!

لا أعرف لماذا يستفزني «اسكتش» (أنا سوري يانيّالي) الذي يحسد فيه الممثل عبد الرحمن آل رشي السوريين على سوريتهم، منذ ظهوره قبل أعوام في التلفزيون السوري وحتى اليوم، مع أني آخذ الاسكتش كلما سمعته على أنه نوع من الأناشيد الحماسية المطلوبة لملئ فترات بث روتينية في احتفالات التلفزيون بالأعياد الوطنية ليس أكثر، إلاّ أن ذلك لايمنعني من سؤال نفسي: لماذا أنا سوري يا نيّالي؟ وأبدأ بالتفكير بجدية في الأسباب التي تدفعني كسوري لحسد نفسي إلى الدرجة التي يتم فيها تكليف شاعر بكتابة اسكتش، وملحن بتلحينه، وفرقة بأدائه، ونجم ومنشدين، فضلاً عن مخرج وكادر فني وتقني لتصويره، فلو تجاوزنا مسألة الجنسية والمواطنية التي تدفع أي مواطن في العالم للاعتزاز بانتمائه لوطنه وليس السوريون فقط، لابد من وجود أسباب أخرى تدفع السوريين (وليس غيرهم) لحسد أنفسهم على حياتهم، فأنا أستطيع أن أقدر مثلاً توليف اسكتش يحسد فيه الأمريكيون أو الفرنسيون أو السويديون أنفسهم على جنسياتهم، فبإمكان أي من هؤلاء أن يقدم قائمة طويلة بمميزات الحياة المرفهة التي يعيشونها بجد، بغض النظر ماإذا كانت هذه الرفاهية بنيت من دماء الشعوب المقهورة كما يصفها عادةً ماتبقى من الرفاق الشيوعيين، ولكن ماهو رد أي سوري لمن يسأله: ماهي الأشياء التي تحسد نفسك عليها إلى الدرجة التي تقف وفي وسيلة إعلامية بحجم التلفزيون، وليس في اجتماع حزبي داخل، لتصرخ بملء فمك: أنا سوري يانيالي؟! ولو تجاوزنا شخصين هما المعلق السياسي السوري الدكتور عماد فوزي الشعيبي،

والنائب اللبناني ناصر قنديل اللذان سيجدان بديهة مطواعةً ولغة فكهةً (مع اختلاف اسلوبيهما) للرد الفوري على هذا السؤال، لن نعثر بين الـ18 مليون سوري من سيجيب بسهولة على هذا السؤال الصعب، وربما بدافع من عصبية قومية سيتأتئ ويفأفئ طويلاً قبل أن يعثر على أي جواب، وسيستعين بلفظ الجلالة في صياغة جملته بين الكلمة وأختها.. فإن شاء الله سأحصل على بيت، وبإذن الله سأجد عملاً، وسبحان الله كيف مضى هذا الشهر، والله بيدبرها، لابسبب خلفية دينية إنما لأنه بدون مشيئة الله لن يتمكن سوري من الاستمرار في الحياة، فالدخل الشهري للسوري لايتعدى المائتي دولار في أحسن أحواله، وشراء منزل في أمريكا أرخص من شرائه في دمشق، وعلى عكس العالم السيارة في سورية يزداد سعرها كلما قدمت سنة صنعها، وتكلفة دقيقة الحديث في الموبايل هي الأغلى بين الدول العربية، وكل مافي البلد قديم ينتمي إلى الماضي: الشوارع والأبنية والسيارات والشعارات والإعلام، وكلمة ممنوع أكثر الكلمات تداولاً، والفساد هو الذي يحرك الحياة، فلا يشق طريق، أو يشيّد جسر، أو يفتح نفق، أو يعلو بناء، أو تمر معاملة مالم يكن لأحد مصلحة ما، أو يدخل في جيب ما مبلغ ما، والدوائر الوحيدة التي تعمل بجد وتنشط بدون كلل أو ملل هي أبنية المخابرات، والناس تضيف إلى طعامها توابل الشعارات لتشبع، وحلم الوحدة العربية وتحرير فلسطين ومعاداة الاستعمار لايراه إلا السوري العادي فيقاسمه لقمته، بينما يغيب هذا الحلم (سبحان الله) عن منامات المسؤولين السوريين فيأكلون لقمتهم كاملة، ومع ذلك فالسوري يدبّر رأسه بإفساد حياته مرة، وإفساد حياة الآخرين مرة، ويعيش.. مثله مثل شعوب عديدة، لكن الفارق بينه وبين

تلك الشعوب أنها لاتملك أغنية من نوع (أنا سوري يا نيّالي) تحسد فيها نفسها على حياتها التعسة!

قبل أن أنهي وإحقاقاً للحق لابد أن أذكر أن المسؤولين السوريين وأبنائهم، وأثرياء الخط العسكري بين دمشق وشتورة، ومليونيرات الوحدة والحرية والاشتراكية من حقهم أن ينشدوا (أنا سوري يانيّالي)، ويا نيّالهم فعلاً، لأنه ما من بلد يمكن أن يجعلهم يحسدون أنفسهم بمثل هذه الطريقة غير سورية!

جريدة «النهار» اللبنانية، 15/ 12/ 2004

إسرائيل اللازمة لهم!

طرح علي الصديق شعبان عبود سؤالاً افتراضياً هذا هو: ترى ماالذي كان سيحدث لنا لو لم تكن اسرائيل موجودة؟! ووجدته سؤالاً مفاجئاً يستحق التفكير وعصر الدماغ وعناء الاجابة عليه، وفيما يلي سلسلة من أفكار راودتني قد تكون مدخلاً أولياً للاجابة على مثل هذا السؤال الفذ، وهي قابلة للاستفاضة والإضافة بقدر عدد الأشخاص الذين سيقرؤون السؤال، وبقدر كمّ الأفكار التي ستمرّ في رؤوسهم، ولذلك فكل ماستقرؤونه هنا غير مكتمل، وقابل للرؤية من جانب مختلف عن الجانب الذي سأنظر منه إلى هذا السؤال!

من جهتي أرى أن هذا السؤال يمس جوهر حياتنا، فلو لم تكن اسرائيل موجودة، لربما كسدت تجارة الأقمشة التي تباع بالجملة، لتكتب عليها الشعارات المناهضة لاسرائيل في المسيرات الجماهيرية التي تعتبر الجبهة الحقيقية الوحيدة المفتوحة على اسرائيل، والتي يتم من خلالها فقط تحقيق انتصارات عليها، ولربما قلّ عدد اللصوص الذين يسرقوننا باسم محاربة اسرائيل، وخف عدد الأحرار الذين يسجنون بدعاوى المعركة المستمرة مع اسرائيل، ولاختصرت عدد صفحات الجرائد إلى الربع، لأن ثلاثة أرباعها يذهب الآن هدراً في شتم اسرائيل والصراخ في وجهها، ولتقلصت مدة الخطب الرسمية المملة إلى خمس دقائق لأطول خطاب، لأن الموضوع الذي يستغرق ساعة من زمن أية خطبة يتحدث عن مؤمرات اسرائيل، ولنزل عدد الثورات التي تسلمت سلطات الوطن العربي إلى عشر ماهو موجود منها الآن، لأن تسعة أعشار الثورات – إن لم أقل عشرة أعشارها – قامت

على أكتاف اسرائيل لسحقها ومحقها من الوجود، ولأن كل شيء في حياتنا مؤجل بسبب اسرائيل، التنمية والديمقراطية والوحدة والمواطنة وكل شيء مؤجل بسبب هذه الإسرائيل، التي تبدأ معنا رحلة الحياة من لحظة الاستيقاظ وتمشي معنا كيفما تحركنا، وترافقنا كظلنا، وتدخل معنا حتى إلى أعمق لحظة في أحلام نومنا، اسرائيل التي تبدأ معنا رحلة وعينا منذ أول لحظة يدخل فيها النور إلى عقولنا وتستمر حتى لحظة لفظ أنفاسنا كما لو أننا وهي توأم سيامي لايمكن لأي جراح في الأرض أن يفصله، أباؤنا وأجدادنا قضوا أعمارهم في وهم مقارعة اسرائيل، وجيلنا قضى نصف عمره الأول في وهم من قال لنا بأنه سينتصر على اسرائيل، ويعيش نصف عمره الثاني في وحل من غيّر كلامه وبدأ يستجدي السلام مع اسرائيل، اسرائيل التي بدونها لم تكن لتتكدس باسم العداء لها ثروات وثورات، ولم تكن لتنتهك أعراض وتستباح دماء ويعتدى على حقوق وتصادر حريات وتقص ألسنة وتفشل حيوات وتفنى أعمار ملايين المواطنين.

لماذا يحدث ذلك لنا نحن الذين نزيد على عشرين دولة تقف بمواجهة اسرائيل، ولايحدث لاسرائيل التي تواجه أكثر من عشرين دولة ومع ذلك فهي لا تتنازل لسكانها القادمين من أربعة أصقاع الأرض عن التنمية والديمقراطية والانتخابات ومحاسبة مسؤوليها ومحاكمتهم ، ولماذا يشعر الذي يأتي لاأعرف من أين ويحمل جنسية اسرائيل أنه مواطنها يتمتع بكل مزايا المواطنية، بينما يشعر ابن الأرض التي ولد عليها أباؤه وأجداده في الدول التي تزيد عن العشرين أنه جالية على أرضه ليس له من حق سوى دفع الأثمان الباهظة تحت بند وجود اسرائيل، والسؤال الأهم لماذا يأتي من يأتي من أية بقعة لكي يقيم في اسرائيل، بينما يزيد عدد المهاجرين من

الدول العشرين العدوة لاسرائيل إلى كل بقعة من بقاع الأرض!؟!

نحن لا تلزمنا اسرائيل في شيء، فباسمها سرقت أعمارنا وحياتنا، وقضت مضاجعنا، واغتيل فرحنا، وقيّدت حريتنا، ولم نتمتع بمواطنيتنا، ونهبت أحلامنا، لكن هناك غيرنا من تلزمهم اسرائيل ،لأنهم بدونها لن يركبوا ظهورنا، وبدونها لايجدون من يلصقون به جريمة، فلو تمت سرقة لايريدون الكشف عن فاعلها فاسرائيل جاهزة، ولو اغتيل أحد فاسرائيل حاضرة، ولو فشل مشروع فجسد اسرائيل يتحمل، ولو ضاعت شاة في أرض العراق فلن يسأل عنها عمر بل ستتقبل اسرائيل التهمة بكل ممنونية، وبعد ذلك يأتي شعبان عبود ليسألني ماالذي كان سيحدث لنا لو لم تكن اسرائيل موجودة؟

بكل بساطة كانوا سيخترعونها لأنها تلزمهم، مستلهمين قول نزار قباني: الحب في الأرض بعض من تخيلنا/ لو لم نجده عليها لاخترعناه!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 6/ 4/ 2005

ثـلاثة في واحـد:
ليس إعلاناً لمنتج بل توصيفاً لوزير

قد لا ينطبق الوصف الذي أطلق على وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد بأنه يفقد أمريكا صديقاً كلما أطلق تصريحاً، على وزير الخارجية السوري فاروق الشرع بالكامل، لكن مجموعة من التصريحات التي أطلقها رئيس الدبلوماسية السورية منذ التحضير لغزو العراق وحتى اليوم تدخل بشكل أو بآخر ضمن هذا الوصف، فهو لم يترك جهةً تعتب عليه لأنه لم يتناولها بأحد تصريحاته، أكثر من ذلك لم يكتف الأستاذ الشرع بمهام وزير الخارجية بل اختصر بشخصه وزارة كاملة مصغرة، فجمع بين تصريحات يفترض أن يكون مطليقها ثلاثة وزراء معاً ومن أصحاب الحقائب السيادية، فتارة يقوم بمهام وزير الدفاع، وتارة بمهام وزير الاعلام، وتارة ثالثة بمهام وزير الداخلية، إضافة إلى صفته كوزير للخارجية، وقد أصبح تصريحه الشهير بعد قصف الطيران الاسرائيلي لأحد المواقع العسكرية السورية في لبنان بأن (سورية تحتفظ لنفسها بحق الرد في الزمان والمكان المناسبين) شهيراً إلى الدرجة التي تجعلني أتجرأ على القول بأنه ذهب مثلاً، واكتشف السوريون عبر هذا التصريح طرافةً (لم ينتبهوا لها قبله) في الشخصية السورية وتحديداً بعد قصف الطيران الاسرائيلي لمنطقة عين الصاحب القريبة من دمشق، حين بدؤوا يتداولون فيما بينهم بأن الرد لن يتجاوز إعادة إطلاق الاستاذ الشرع لتصريحه الشهير، وهكذا كان...

وقد بدأت شعبية الأستاذ الشرع العربية بالارتفاع مع وصفه للغزو الأمريكي للعراق بـ«السطو المسلح»، الذي نال عليه تصفيقاً شديداً كون

غالبية الشعب العربي كانت ضد هذا الغزو، ولم يكن ينقصه في ذلك المشهد الحماسي الذي جرى خلال اجتماع لمجلس الأمن الدولي في لحظة مفصلية من تاريخ العالم الحديث، إلاّ حذاء خروتشوف الشهير ليضرب به الطاولة، أو عدداً كبيراً من النياشين العسكرية التي كان يضعها جنرالات الاتحاد السوفييتي على صدورهم، وأن يكون هو ممثل دولة تملك ترسانة نووية وجيشاً عرمرماً وأسلحة عابرة للمحيطات، لكن بما أن ذلك كلّه لم يكن بمتناول يد الأستاذ الشرع فقد جرّ تصريحه (إضافةً إلى التصفيق العربي سالف الذكر) على سورية تهديدات أمريكية بدأت ويبدو أنها لن تنتهي، كانت في منجى منها لو وصّف رئيس الدبلوماسية السورية غزو العراق بالاحتلال، وهي مفردة تتسق مع مهمته كدبلوماسي وتؤدي نفس الغرض، دون أن تكون لها نفس النتائج التي جنتها سورية جرّاء إفراطه في الحماسة، ورغم ذلك لم يشعر أحد بالأسى على خسارة أمريكا لأن السوريين لايعدونها من الأصدقاء أصلاً، لكن الأستاذ الشرع عاد وفي نفس الموضوع ليطلق تصريحاً من نفس النوع الذي يفقد الأصدقاء، أو على الأقل الذي لايهتم بالعلاقات العامة التي هي أحد أسس العمل الدبلوماسي، حين اعتبر أن المستفيد من الاحتلال الأمريكي للعراق هم الأمريكيون والاسرائيليون والأكراد، متجاهلاً تاريخاً من التحالف السوري الكردي (عبر شقهم العراقي) وصل إلى حد المساندة والدعم وتقديم الملاذ الآمن والأرض التي يتم التحرك من خلالها، مما أثار مجموعة من الردود التي صدرت عن شخصيات كردية تم احتواؤها بسرعة، وبأسهل الطرق الاعتذارية وأقلّها إقناعاً عبر انكار التصريح سبب المشكلة وتكذيبه.

ومع صدور القرار 1559 عن مجلس الأمن بشأن العلاقة السورية اللبنانية،

وجد الأستاذ الشرع ميداناً آخر للنزال غير المتكافئ كسابقه إنما بطريقة مختلفة عن قضية أمريكا والعراق، ففي الوقت الذي كان التوجه الرسمي للسياسة السورية يطلب أخذ القرار على محمل الجد، كان وزير الخارجية السوري يصر على تتفيه القرار، مرةً باعتباره لقضية الوجود السوري في لبنان (قضية تافهة لاينبغي أن تشغل مجلس الأمن...)، وثانيةً باعتباره القرار الذي أصدره مجلس الأمن الدولي (تدخل بما لايعنيه)، وإشارته إلى دول (وافقت عليه وضُللت لتسلمها تقارير ليست صحيحة وليست دقيقة لكنها ستصحح مواقفها كما نأمل)، وكأنه يتحدث عن شيوخ منسر يتقاسمون غنائم غزواتهم، أو مجموعة حشاشين في جلسة كيف، لا عن ممثلي دول تملك بعضها حق النقض، وبعضها الآخر يملك ألاّ يوافق أو على الأقل ألاّ يصوت، لكن تصريحات الأستاذ الشرع تتجاوز كل منطق وتفوق أي خيال في المرة الثالثة التي يتناول فيها القرار والبيان الصادر عن رئاسة مجلس الأمن حول تطبيقه، حين يعتبر أنه (لا يوجد فيهما ما يمس سورية أو لبنان)، وهنا يتجاوز التعامل مع أعضاء مجلس الأمن على اعتبار أنهم مجموعة من الحمقى، ليسم كل بني البشر (من الذين قرؤوا القرار والبيان، أو قرؤوا حولهما، أو سمعوا نشرة أخبار ورد فيها ذكرهما) بالبلاهة!

ولم يكتفِ الأستاذ الشرع بالشأن الخارجي، بل أدلى بدلوه في الشأن الداخلي، حين تناول بنفس أسلوبه الممازح موضوع المعارضة السورية، واصفاً إياهم بأنهم (غير قادرين على إدارة مدرسة إبتدائية)، غير عابئ بالظرف المناسب أو الحالة الافتراضية التي يمكن أن يكون فيها مثل هذا الكلام مقبولاً، وذلك في وقت يتم فيه الحديث عن حوار وطني يجمع

مختلف الأطياف السورية في مواجهة التهديدات الخارجية!

يمكن لي ولغيري تسطير موسوعة في دبلوماسية الأستاذ فاروق الشرع، التي تخترع تعريفاً جديداً للسياسة، يناقض أبسط تعريفاتها بكونها فن الممكن، وتبتكر نوعاً جديداً من العمل الدبلوماسي المبني على أساس تدمير الطرق وهدم الجسور مع الآخرين، وقطع كل شعرات معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبه مجتمعين!

حادثة من التاريخ تلح علي كلما سمعت تصريحاً للأستاذ الشرع عن خليفة أموي جاء إليه قاضي مدينة (قم) المشهور بعدله للسلام عليه، فقال له الخليفة: ياقاضي قم، قد عزلناك فقم، ويبدو أن سجعته راقته، فنظر بزهو إلى من في مجلسه وقال: والله لو أن سجعةً حضرتني وذهبت بملك بني أمية لما ترددت في قولها!!

موقع «الرأي»، 17/ 12/ 2004

للمرة 1559:
لا لتصريحات الوزير الشرع

للوهلة الأولى قد يبدو تناولي لوزير الدبلوماسية السورية فاروق الشرع استقصاداً شخصياً، كوني تناولته في مقال سابق قبل نحو شهرين، لكني أظن أن المسألة يجب أن تقرأ بشكل معكوس، فأنا أعتبر الوزير الشرع يستقصدني شخصياً، وربما لست الوحيد بين السوريين الذي يشعر بمثل هذا الاحساس، الذي ولّدته تصريحات سابقة لوزير الدبلوماسية السورية، حول تفاهة القرار 1559 وحول كونه يخص جزر القمر وجيبوتي أكثر مما يخص سورية ولبنان، فبسبب هذا الاستكبار الذي أحسد الوزير الشرع على قدرته الفائقة في الاصرار على أن لون اللبن أسود، يعيش السوريون حالة الجارية شهرزاد في ملحمة (ألف ليلة وليلة) الشعبية، التي ترزح تحت مزاج شهريار وهي تبتكر حكاياتها، في محاولة منها للنجاة من سيف مسرور السياف (كدت أكتبه سيف القرار 1559) الذي قد يقطع رقبتها في أية لحظة(!!).

وبعدما حدث ماحدث، واكتشف السوريون أن الوزير الشرع نوّمهم في العسل، وأن القرار 1559 ليس من النوع الذي يطلقه أحد سفرائه ويخرج هو لينفيه أو يصححه فيما بعد، وأن مندوبي الدول العظمى في مجلس الأمن الدولي ليسوا أعضاءً في حلقته الحزبية ليقوّلوا ويوقعوا، ولربما استفزتهم تصريحاته بشأن قرارهم فقرروا المضي في غيّهم وتنفيذ بنود هذا القرار (التافه)، ويخرج كل زعماء العالم ليقولوا أن على سورية تنفيذ قرار الشرعية الدولية 1559، وقد شاهدت وشاهد غيري على كل الفضائيات القاصي

والداني يردد مثل هذا الكلام، حتى أنني ظننت (من كثرة ماسمعت من بيض وسود وصفر من البشر يظهرون في التلفزيون، ويرددون بالعربية والانكليزية والصينية والهيلوغريفية والسنسكريتية رقم 1559) أن القيامة قامت، وأن شيفرة قيام الساعة وبوق الحشر هو 1559 (!!).

من جهتنا نحن السوريين ضربنا يدنا بحثاً عن الوزير الشرع، ليشرح ويوضح ويفسر ويجيب ويُطمئن ويُهدئ فلم نجده، اختفى فجأة ولم يعد صوته يظهر، لكن بقيت صورته تظهر بين فينة وأخرى على الشاشة، لينقل عنه مذيع ما في نشرة أخبار ما تصريحاً ما، بدون أن نسمع صوت الوزير الشرع، ومن المنطقي في هذه الحالة أن احتمال نفي التصريح وارداً مادام لم يسجل صوتياً، لكن الملاحظة التي دقق فيها الجميع وتحاوروا حولها، هي وجه الوزير الشرع الذي لم يظهر عليه الارتياح، مع أنني كنت أخالف الجميع رأيهم هذا وأراه أكثر الوجوه ارتياحاً (!!).

على كلٍ نحن متعودون على هذا الأسلوب من الانسحاب الهادئ، والذي تجلى بأوضح صوره في غياب الوزير الشرع عن مؤتمر وزراء الخارجية العرب، الذي عقد اجتماعاً تحضيرياً للقمة في القاهرة، في عز أزمة القرار 1559، والمطالبات الدولية بتنفيذه بعد استشهاد الرئيس رفيق الحريري، وتوضح في غيابه ولو نسبياً من أمام كاميرات التلفزيون المغرية في اجتماعات وزراء الخارجية العرب في الجزائر، التي سبقت القمة مباشرة، فحمدنا الله ورفعنا له آيات الشكر كوننا سننجو (أو هكذا شبّه لنا) مما قد تجره تصريحات جديدة علينا، لكننا وبعد أن تسرب جدول أعمال القمة، اكتشفنا أن الوزير الشرع ومساعده اللبناني الوزير محمود حمود، قاما بجهد جبار لمنع طرح الزلزال اللبناني على القمة، رغم أنه الحدث الأبرز والأخطر

الآن عربياً، واستبدل بإعادة نبش جثة مبادرة الغزل والمصالحة العربية الاسرائيلية، وحديث رومانسي أقرب إلى خفر العذارى عن الاصلاح، مع تجاهل للموضوع العراقي الذي لايزال مشكلة المشاكل، ولايخفى على لبيب أن العرب، ومن وراء ترتيب جدول أعمال القمة على مقاسه، أراد أن يقول الصلح مع اسرائيل، وتجاهل الاحتلال الأمريكي للعراق، واصلاحات منتقاة على طريقة من يختار أطباقاً محددة من لائحة طعام في مطعم (حسب أحد الذين وصّفوا مقت الزعماء العرب لنغمة الاصلاح)، وكل ذلك مقابل تجاهل زلزال لبنان، الذي تهب من خلاله روائح حرية وديمقراطية على منطقة تكره هاتين الكلمتين أكثر، مما يكره شعبان عبد الرحيم اسرائيل!

إلى هنا والموضوع محتمل ولو على مضض، فالكل يعرف أن القمة العربية مثل المسلسلات المكسيكية، لاتضر ولاتنفع، وأن قراراتها تشبه الدينار العراقي في أواخر أيام حكم صدام حسين تعامل بالكيلوغرام لا بالقيمة، وأن التغيير أو إيقافه ليس بأيدي المجتمعين فيها فهؤلاء يريدون سللهم بلا عنب، لكن من غير المحتمل أن يعود الوزير الشرع إلى تصريحاته الشهيرة التي نقلت جريدة الخليج الاماراتية إحداها (23/ 3/ 2005)، حين أكد بلغة الواثق أنه (لا توجد أزمة بين دمشق وبيروت، ولكن هناك ازمة مفتعلة بسبب تطورات داخلية في لبنان، وأطماع خارجية، بهدف التغطية على ملفات أساسية في العراق وفلسطين)، فهل هذا يعقل؟ وهل الناس من الهبل والبلاهة بحيث لايفهون مايشاهدونه على كل الشاشات وبكل اللغات الحيّه والمنقرضة لما يحدث في لبنان؟ اسألوا أي دهّان على سلّم في السودان، واستفسروا من أي حفار قبور في اليمن، واسمعوا مناغاة أي رضيع

على صدر أمه في البوليساريو، تحدثوا مع اليمين واليسار، وقولوا لـ(الناس اللي فوق) و(الناس اللي تحت)، وخذوا رأي التقدميين والرجعيين، وبعد ذلك عودوا واقرؤوا التصريح الأخير للوزير الشرع، وأجيبوني كسوري معني أكثر من الجميع بهذا التصريح، لأنه يقلقني ويهدد حياتي ووجودي ويجعل الأرض تزلزل من تحتي، والسماء ترعد من فوقي، وساعتها سأضرب يدي باحثاً عن تصريح آخر مطمئن للوزير الشرع فلا أجده، ولا أجد تصريحه!

قبل أن أنهي مقالي اتصل بي صديق ليسألني ماهو السبب الذي يجعل من أمريكا دولة قادرة على تحقيق أهدافها، ولم أتعذب في العثور على اجابة فقلت فوراً: لأنها تتعامل بعقلية الشركة المساهمة، فهي قد جاءت بالجنرال المتقاعد غارنر ليدير العراق بعد احتلاله، وبدلته بعد شهر واحد دون أن تعتبر ذلك انتقاصاً من هيبتها أو تراجعاً لسياسة دولتها، لا لأن العرب هاجموه باعتباره صديق شارون، لكن لأنه فقط لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب، ولم تحمه قرابة أو صداقة أو تاريخ، فهذه شركة وليست تكية!!!

جريدة «القدس العربي»، 29/ 3/ 2005

مات ممدوح عدوان و... بقوا (هم)!!

لم يخطر في بالي ولا في يوم من الأيام أن أكون أول من سيسمع خبر موت ممدوح عدوان من الطبيب الذي أعلن وفاته، ولم أتخيل أني سأكتب بيدي نعوة ممدوح عدوان التي ستلصق في الشوارع، ولم أفكر بأن ممدوح عدوان سيموت، فحتى في أيام مرضه كنت أعتقد في داخلي أنه في يوم ما سينتصر ممدوح عدوان على المرض كما في كل معركة دخلها، ولم أكن أظن أني سأكون آخر من يقبّل الجسد المسجى لممدوح عدوان في غرفة إسعاف في مشفى دمشقي، ولكن ما لم يخطر لي أو أتخيله أو أفكر به أو أظنه حدث كلّه دفعةً واحدة بمصادفة من أسوأ مصادفات حياتي، وللصدفة السيئة عشت كل هذه المستحيلات دفعة واحدة، وخلال مدة بدت لحظات خاطفة وهي كذلك بالفعل.

ومع أن كل ذلك حدث لا أستطيع أن أصدق أني لن أتصل بممدوح عدوان غداً أو بعده لأخبره أني قادم لزيارته، وأستفتيه في أي نوع من الكليسترول (كما كنّا نشفر مسميات الطعام الدسم) يشتهي لأحضره معي، كما فعلت يوم الوفاة، وكانت الروح لاتزال عالقة في جسده، فممدوح عدوان يمثل بالنسبة لي أكثر مما أظن، ولايزال صوته الناري في أذني على الشريط المسجل في اجتماع أعضاء الجبهة الوطنية التقدمية الشهير، في نهاية السبعينيات مع الكتاب والصحفيين، وهو أول معرفتي به من غير لقاء، والتقيته لأول مرّة في عام 1979 فلم تتغيّر صورة الكاتب المقاتل العنيد، وله فضل عليّ وعلى إدارة حياتي فيما بعد، وبيقين يصل إلى حد التأكيد أقول أن حياتي كانت ستبدو أقل شراسة مما هي عليه

الآن، وعنادي كان سيصبح أكثر ليناً لو لم ألتق به أول مرّة في اللاتيرنا، وثمة قاعدة في الكتابة والحياة علمني إياها ممدوح عدوان وأنا لاأزال أسير عليها، وقد ذكرته بذلك قبل أيام قليلة من وفاته، قال لي وهو يرسم دائرة بيده، هذا هو الهامش المعطى لنا ككتاب، عليك ككاتب أن لاتقف في منتصف الدائرة، لأن هناك من سيضيقها عليك فيما لو فعلت ذلك، مهمتنا ككتّاب أن نقف عند جدارها ونحاول توسيعها، وممدوح عدوان واحد من قلّة من الذين وسّعوا هامش الحرية في سورية، وفي زمن كان فيه الهامش أضيق من شفرة السكين، مرة بالشعر، ومرة بالمقالة، ومرّة بالندوة، وكان يتلقى شتى الاتهامات مرّة ممن يملكون الهامش، فتهمهم جاهزه، وعقابهم حاضر، فمنع من الكتابة، ومنع من السفر، وسحب جواز سفره، ونقل من جريدة الثورة كصحفي لمترجم في وزارة الاعلام، وفرزت سيارة مخابرات لمتابعته، ولكن ممدوح عدوان لم يستسلم، وفي حين كان يكبر كل يوم كان أعداؤه يصغرون يوماً بعد يوم، وكان يتلقى من وجه العملة الآخر تهماً مناقضة تماماً للأولى، فيتهمونه بالعمالة للمخابرات، وكان دليلهم الوحيد أنه شجاع وصاحب لسان طويل، ويقولون لك كيف بإمكانه أن يحكي لو لم يكن كذلك!

كانت مشكلة ممدوح عدوان أنه رجل مختلف بين أشباه، وتعب طويلاً ليقنع الجميع بنفسه وبكتابته، وعندما فرضته موهبته وشغله ومثابرته، دخل في صراع غير متكافئ مع عدو من من نفس فصيلة أعدائه السابقين إنما هذه المره هوجم من الداخل لا من الخارج، جاء مرض السرطان ليواجه ممدوح عدوان، ودخلا في مكاسرة بالأيدي، وكنت أراقبه من زيارة لزيارة، تارة يثبّت المرض ويلوي له ذراعه، وتارة يأخذ السرطان ثأره منه، قال لي

زياد ابنه قبل أيام إن أباه كان يقول له في بداية المرض، سأعيش، لكنه في الفترة الأخيرة بدأ يتحدث عن الموت، وسمعت من إلهام رفيقة عمره كم كان يشعر بالأسى لأن أحداً لم يطلب منه في أيام مرضه أن يكتب زاوية أسبوعية لصحيفة أو مجلة، وكبرياؤه يمنعه من أن يطلب ذلك من أحد، ولربما مات ممدوح عدوان بمرض الإهمال لابمرض السرطان.

منذ يومين شاهدت صورة قديمة لممدوح عدوان كان فيها في عزّ عنفوانه، ساموراي في الكتابة، هي التي انطبعت في ذاكرتي في كل لحظة أتخيله أو أتذكره فيها، ولم تمحها صورة الجسد المتهاوي الذي يستند على ابنه زياد وهو يصعد منصة حفل الافتتاح في مهرجان دمشق المسرحي الأخير، ولكن اليوم ماالذي أستطيع قوله وأنا أنظر إليه للمرّة الأخيرة مسجى في غرفة اسعاف، وأتذكر تاريخاً من حبي له كمعلم وكصديق، وأحقد على من حاربوه طوال حياته، وسمموا له عيشته، وأفكر كيف كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك برجل أعطى سورية أكثر مما أخذ منها، بينما هم الذين أخذوا منها ولم يعطوها إلاّ الخراب والفساد، من وزراء الإعلام الذين سدّوا بوجهه الطرق، وبعضهم بقي طوال ثلاثة عشر عاماً هي كل فترة وزارته يطارده ويطارد غيره من المثقفين الشرفاء، إلى كومة المخبرين الذين كتبوا فيه التقارير وباعوه بثمن بخس، إلى المعارضين الذي لوثوا رداءه النظيف، إلى شقيق كل هؤلاء وابن فصيلتهم مرض السرطان.

واليوم نحن أمام حقيقة أكيدة هي أن ممدوح عدوان مات، ولاينفع رثاء ولاندب، ولايعزي كلام عن أدبه الخالد، يقوله في حفلات التأبين من ساهموا بموته، لكن ربما مايعزّي فعلاً أن نتخيل ممدوح عدوان مع اكسسوارته الدائمة (السيكارة المشتعلة وكأس العرق وسعاله المستمر)،

جالساً في مكان ما في الأعلى وهو ينظر إلينا نندبه وهو يتسلّى بمشهدنا الليلة، وكل من عرف ممدوح عدوان سيراوده مثل هذا الخاطر ، لأن من عرفه لايصدق حقيقة موته وهي حقيقة بالفعل، فمن الصعب أن نفكر بأن ممدوح عدوان قادر على الموت بهذه السهولة، وسيمضي وقت طويل لنتأكد بأنه تركنا وفعلها ومات!

جريدة «النهار» اللبنانية، 3/ 1/ 2005

صورة البعثي في عيون السوريين

كفّ السوريون منذ زمن طويل عن النظر إلى حزب البعث العربي الاشتراكي باعتباره حزباً سياسياً، ينتسب إليه المؤمنون بأفكاره ومبادئه وأهدافه ويناضلون من أجل تحقيقها، مثله مثل أي حزب في المنطقة العربية والعالم، لأن التماهي الذي حصل بينه وبين السلطة بدلّ كل مفاهيمهم عن الأحزاب، فأصبح البعثي الذي لايزال يوصف في بعض أدبيات الحزب الورقية بـ(المناضل)، يعتبر صاحب سلطة مهما كانت مرتبته الوظيفية، فلو وجد مستخدم بعثي في دائرة حكومية يديرها رجل لاينتسب لحزب البعث (وهذا حدث افتراضي)، سنجد أن المدير يخفض صوته أو يغيّر حديثه عند دخول المستخدم البعثي لتقديم الشاي أو القهوة له، وسنرى مثل هذه الحالة تتكرر بتعبيرات أشد وضوحاً، فيما لو كان البعثي يسكن في حي أو بناء ما، حيث نرى جيرانه يتحاشون الاحتكاك معه أو الاشتباك معه في أية قضية أو مشكلة، وكثير من السوريين من غير البعثيين يكتفون بالصمت فيما لو حصل بعثي يقلّهم كفاءةً على فرصة يعتقدون بأنهم أحق بها، ولاتعود مثل هذه التعبيرات الصامته غالباً لهيبة يرونها في البعثي، كتلك الهالة التي يرسمها صانعو الأيقونات في العادة حول رأس السيد المسيح أو السيدة العذراء، إنما لتماهيه مع السلطة، أو مع أشد وجوهها رعباً والممثلة بأجهزة الأمن، فأغلب مواطني سورية يفكرون بالبعثي على أنه مخبر محتمل ومصدر قلق مؤكد، ولأن مثل هذه الحالة تعتبر ميزة وإمكانية لإثبات الوجود لكثير من ضعاف النفوس، فقد زاد الاقبال على حزب البعث، ومرت على سورية سنين منح فيها البعثي رسمياً صورة علنية

للسلطة والسطوة، إضافة لصورة المخبر السرية التي صنعها وهم الناس له بإيحاءات لاتخفى منه، من خلال ماسمي بالكتائب المسلحة أو المظليين والمظليات، وأصبح البعثي يمشي بمسدس بارز على خصره، أو بدلة مموهة على جسده، ناظراً إلى الآخرين بعدائية متباهية، يبادلونه هم مثلها إنما بأسلوب أضعف الايمان!

... ولأنني لم أعش مرحلة نشوء وعمل حزب البعث داخل المجتمع السوري في خمسينيات القرن الماضي، وكل معلوماتي عنها ليست أكثر من مجرد حكايات شفوية ومسامع إذاعية ومشاهد تلفزيونية، لاتستطيع في مجملها أن تجادل الصورة التي عشتها (وعانيتها) للبعثيين، الذين أحاطوا بسنوات عمري وحكموا حياتي حتى اليوم، وعاملوني كمواطن من الدرجة الثانية، لأني لم أتدرج في مؤسساتهم التنظيمية من الطلائع إلى الشبيبة إلى الحزب نفسه، فأعطوا (الرفيق) الجالس معي على مقعد الدراسة في الثانوية العامة، كمية من العلامات المجانية فقط لأنه خضع لدورات في شبيبتهم الثورية، وسرقوا مني فرصاً، وسدّوا في وجهي أبواباً لمجرد أني لست بعثياً، وحين كنت أجادلهم في طلب حقي كانوا يقولون بأن (غريمي) البعثي هو مناضل، وبعنادي الذي لايتقبل الأمر الواقع دون اعتراض، كنت أبحث عن ماهية وشكل نضال من سرق فرصتي، فأجد أنه لايزيد عن كونه يحضر اجتماعاً، ويصمت ويوافق ويصفق!

أتحدّث في اليوميات المعاشية التي يمشي فيها السوري على الصراط المستقيم في الدنيا، قبل أن يمشيه في الآخرة بين جنة البعث أو النار، فكيف لو تحدثت في حقوق المواطنة الكاملة التي ينظر إليها السوري غير البعثي، الذي يعيش وضعاً سبارتاكوسياً (نسبة إلى سبارتاكوس) بانكسار، حيث

ليس من حقه حتى أن يفكر بأن يكون رئيساً للجمهورية، أو للوزراء، أو للبرلمان، أو في أي موقع مسؤولية سيادي، يكون فيه صاحب أمر ونهي وفاعلية، حتى لو كان رئيساً لقسم أذنه ومستخدمين، دون أن أغفل جوائز الترضية من المناصب الشرفية القليلة، التي تمنح لغير البعثيين من قبيل رسم الصورة التعددية.

هل هذه هي صورة البعثي فقط؟ لا أعمم وإن كانت الغالبية تعتبر البعث سلماً ينبغي صعوده إلى المنصب، والسيارة، والمال، والصفقات، والنساء، وكل أشكال الترف النضالية الأخرى، فبالتأكيد هناك من البعثيين من انتسب إلى الحزب ليتدبر معيشته ويحمي أمنه الشخصي، ويبعد أذى كتبة التقارير عن حياته، ويضع في بند الأحزاب التي انتسب إليها في الاستمارة الأمنية اللازمة لكل طلب توظيف كلمة : حزب البعث العربي الاشتراكي. وهناك تمايز بين بعثي مدعوم بسبب قرابة أو عائلة، وآخر منتوف لايصيبه من البعث إلاّ النقد الذي بدأ يوجه للحزب مؤخراً، وبين كل هؤلاء الذين لكل منهم أسبابه الخاصة في الانتساب للبعث، نتساءل أين بعثي خمسينيات القرن الماضي والذي بفضله وجدت صفة المناضل في أدبيات الحزب؟

واليوم مؤتمر حزب البعث على الأبواب كما يقال وأمامه استحقاقات لاتحتمل التأجيل، فالبعض يطلب مناقشة مفهوم الوحدة في فكر الحزب، بجعل الحزب سورياً مع مايشبه امتداداً عربياً غير وصائي، تلبية لظروف سياسية فرضها الحدث الخارجي، وهو أمر يمسّ فكرة وجود الحزب القومية أساساً، والبعض يطلب مناقشة مفهوم الاشتراكية في فكر حزب البعث، وإلغاءها في الاقتصاد مع الإبقاء عليها في السياسة، مستفيداً من الخلطة

الصينية، تلبية لشراكة لم يعد تجاهلها ممكناً مع الخارج، ولمطالب صار الوقوف بوجهها عبثاً من مليونيرات الداخل الجدد، الذين ولدوا ونموا وترعرعوا داخل التربة الاشتراكية، لكني لم أسمع (أي بعض) يتحدث عن الاستحقاق الأهم والداخلي بامتياز، وهو إعادة البعث إلى حزب البعث والبعثيين، لنرى صورته في عيون السوريين على غير ماهي عليه الآن: مليونير وشعاراتي ومرتشي وانتهازي وكاتب تقارير، ولتزال شعارات البعث من على أبنية المخابرات، ومن فوق رؤوس ضباطها الذين يعطون الانطباع وهم ينكلون بالسوري الذي يقع بين أيديهم، أن حزب البعث هو من ينكل بهم.

جريدة «القدس العربي»، 16/ 3/ 2005

سياحة أمنية في سورية

لو كتبت فحوى ما جاء في بيان السيد نبيل فياض (الذي أصدره بعد اعتقاله لمدة شهر في أحد فروع الأمن السورية) حول التعامل المغالي في انسانيته معه، في لوحة كوميدية، لاتهمت بالمبالغة وموت الاحساس لدي والسخرية من الألم الانساني، لكن كل هذه الاتهامات لم تمنعني من الابتسام، وأنا أقرأ البيان الذي نشر (إمعاناً في السخرية ربما) في الصحافة السورية، التي ليس من تقاليدها نشر البيانات الشخصية، فالسيد فياض يفصّل في المعاملة الانسانية التي تلقاها بدءاً بالسماح له بالاتصال بمن يريد، ومروراً باحضار طبيبه الخاص، منوهاً بأنه قضى فترة احتجازه في المشفى تحت الرعاية الطبية التي ربما فاته أن يصفها بالفائقة، ومذكراً بأن التحقيق معه لم يتعد أسلوب المناقشة المتعاطفة معه ثم ايصاله إلى بيته، لكن الأمر الوحيد الذي مرّ من (فلتر) السيد فياض، خلال تعداده لخدمات الخمس نجوم الأمنية التي تمتع بها، هو طريقة اعتقاله بعد تفتيش منزله ومكان عمله، التي تبدو متناقضة مع ماتلاها من إنسانية فترة الاعتقال!

ذكرني هذا البيان الذي كتب على مايبدو على قاعدة (شر البلية مايضحك) بمشاهد رويت لي عن معتقلين، كانوا يُخرجون إلى باحات سجنهم ليهتفوا بفدائهم لمن سجنهم بالروح وبالدم، ولم ينقص السيد فياض في بيانه لتكتمل الصورة الكاريكاتورية، إلا دعوة كافة الاخوة المواطنين للتمتع بهذا النوع المبتكر والمريح من السياحة الأمنية، والآن سأدع المخيلة الدرامية جانباً لأتساءل بجد: هل هذا مايحدث حقاً ليس في حالة اعتقال مواطن؟ بل في حالة مخففة هي استدعاء مواطن لمراجعة

أحد فروع الأمن!

من تجربتي الشخصية أجيب: لاأظن! فبسبب مقال عن الاعلام السوري كتبته في جريدة النهار عام 2001، وقلت فيه أقل مما قاله وزير الداخلية السوري الحالي اللواء غازي كنعان، الذي وصف إعلام سورية بأنه لايقرأ، قضيت مايزيد عن نصف شهر وأنا أداوم في أحد فروع الأمن يومياً من التاسعة صباحاً وحتى الثانية ظهراً، ومن الخامسة مساءً وحتى العاشرة ليلاً، أسمع خلالها التهديد والوعيد وأتلقى الاتهامات، ويُبحث لي عن ارتباطات، وعرفت فيها من الرعب والخوف مالم أعرفه في أي لحظة من حياتي، باستثناء اللحظات المماثلة التي كنت فيها مستدعى إلى فرع أمن آخر، وحتى لا أجد من يقول لي أن هذا الزمن مضى، إليكم ماحدث معي قبل عدة أشهر، فخلال ندوة عقدتها هيئة الاذاعة البريطانية في دمشق كنت أحد المشاركين فيها، اعتذرت عن أخذ جريدة البعث التي كانت توزع على الحاضرين، وخلال الاستراحة عاتبني رئيس تحريرها (الذي أصبح الآن وزيراً للاعلام) على رميي لجريدته على الأرض، وهو ما لم أفعله، وسألني بلهجة المهدد إن كنت أعرف باسم أي حزب تنطق هذه الجريدة، وهل أعرف من هو هذا الحزب، ليضيف أخيراً بأن هناك جهات أخرى ستعرف كيف تتحدث معي، وفعلاً لم يمر أكثر من عشرة أيام حتى استدعيت إلى أحد فروع الأمن، ليحقق معي بتهمة رمي جريدة البعث على الأرض، وليعاد تذكري بأن هذه الأبنية -التي أتحاشى أنا وغيري المرور قربها، فإن اضطررنا للمرور نغض أبصارنا عنها خوفاً ورعباً- بتاريخها السيء الصيت وجدت لإرهابنا، وخلق مرض جديد يعانيه المواطن السوري اسمه فوبيا المخابرات، وبعد ذلك يأتي السيد نبيل فياض ليروي في بيانه مآثر عن المعاملة الفاضلة

للمواطنين داخلها، حتى ليظن قارئ البيان أن موظفيها من خريجي أرقى مدارس الاتيكيت في العالم!

ومع ذلك سألتمس للسيد نبيل فياض العذر، لأن الداخل إلى المكان الذي كان فيه مفقود والخارج مولود، كما يقول السوريون في العادة، وقد أجد نفسي مضطراً في يوم من الأيام لكتابة مثل بيانه، وأتمنى – في ما لو حدث ذلك – على قرائه أن لا يصدقوني!

جريدة تشرين السورية، 23/ 11/ 2004

لماذا يصبح لبنان أكبر وسوريا أصغر؟

باعتباري معيّناً منذ عشرين عاماً في جريدة تشرين السورية بوظيفة صحفي، كنت أتعرض كغيري من الزملاء الصحفيين إلى امتحانات في وطنيتي، في جميع المناسبات الحزبية التي تحتفل بها الدولة كل عام، وكانت الكتابة الصحفية الاجبارية عن الانجازات جزءاً من هذا الاحتفال، وكان على الصحفيين السوريين أن يناقضوا ماكتبوه طوال العام عن الفساد والهدر والتخريب في المؤسسات السورية، لتصبح نفس المؤسسات أيام الأعياد الحزبية في سورية، على صفحات نفس الصحف وبأقلام نفس الصحفيين صروحاً شامخةً، ويصبح فسادها انجازات وهدرها ربحاً، ولأن أعداد الصحف التي تصدر في تلك المناسبات، لم تكن تقرأ لاعلى المستوى الشعبي ولاعلى المستوى الرسمي، إنما كان ينظر إليها باطمئنان، كنظرة الراعي المطمئن إلى أن قطيعه لايزال هادئاً يرعى الحشائش بسعادة غامرة، لجأ كثير من الصحفيين السوريين العقائديين، إلى إعادة نشر مقالاتهم الانجازاتية التي نشروها في المناسبة الماضية نفسها مع تغيير تاريخ ذكرى المناسبة، وكنت واحد من قلّة من الصحفيين الذين يبحثون عن أعذار للتهرب من الكتابة في تلك المناسبات، بالتغيّب مرة، ومرة باختراع مشكلة مع مسؤول تحرير قبل أيام من المناسبة لسبب آخر غيرها، لأن الزمن كان مرعباً لايحتمل الاعتذار الصريح عن الكتابة في تلك المناسبات، فالطريق من الجريدة إلى فروع المخابرات كان أسرع وأقصر الطرق، لأنه كان الطريق المستقيم الوحيد المعترف به في تلك الأيام، حين كان مساعد في المخابرات يستطيع أن يحول أحلام رئيس تحرير جريدة إلى كوابيس فما

بالك بمحرر(!!)، ولم يكن أحد بحاجة حتى إلى تهمة ليترك بيت أهله ويزور في بيت خالته (كما يدلّع السوريون عادةً أقبية المخابرات وسجونها) لمدد مفتوحة، فضلاً عن أني شخصياً لست بحاجة إلى تهمة، فكوني أنتمي لمدينة حماه السورية كان بحد ذاته تهمة دامغة، ورغم كل هذه الظروف لم أكتب ولامرة في أي من هذه المناسبات، لكن ذلك لم يمنع حلماً راودني في كل مناسبة حزبية عبرتها بسلام، بمعنى أن رأسي بقي بين كتفي ورجليي بقيتا تسيران في الشوارع، بأن يوماً سيأتي وأكتب فيه عن مناسبة من هذه المناسبات، وعن مؤسسة من هذه المؤسسات، دون أن أكون شاهد زور، وعلى مايبدو لي أن هذا اليوم أتى، وأجدها مناسبة للحديث عن الاعلام السوري بمناسبة مرور 42 سنه على (الثامن من آذار)، ومن مساوئ الصدف أن يكون هذا الإعلام في هذه المناسبة، يعيش آخر امتحاناته الخاسرة في حادثة استشهاد الرئيس رفيق الحريري، وماتلاها من تداعيات انتفاضة الاستقلال في لبنان.

فهذا الاعلام الذي تديره عقلية منغولية، ويشتغله صحفيون منغوليون، يعتقدون أنهم يتوجهون من خلاله لشعب منغولي، الذي وصفه أحد أبرز أدواته التنفيذية المزمنة الدكتور فائز الصايغ مدير عام جريدة الثورة وملحقاتها، في افتتاحية الجريدة بتاريخ 23/ 8/ 2004 بأنه: (يشهد تطوراً ذاتي الدفع وفق منظومة أخلاقية وطنية وقومية ملتزمة، وقد شرع أبوابه وصفحات صحفه وشاشاته لأصحاب الرأي والاجتهادات والمواقف حتى المتباينه منها)، لم يستطع أن يقدم لقارئه ومشاهده صورة عمّا يجري في بلد أكثر من مجاور له، وكان وسط الحدث المتلاحق أشبه مايكون بالطفل الباكي التائه عن أهله في حديقة عامة، فعاد إلى أسلوبه القديم الأثير

في النواح على الأموات، والزغردة في الأعراس، والشتائم في المشاجرات، وعليهم ياعرب.. فألغت صحفه بسرعة مثيرة للاعجاب كل الفوارق بين الصحافة المطبوعة وجرائد الحائط ، وتماهى تلفزيونه وإذاعته بطريقة مدهشة بالإذاعات التوجيهية للمدارس الابتدائية، واصطف صحفيوه المعتمدون أرتالاً في الطوابير، باعجاز يجب أن يدرس كما لو أنهم طلاب مدرسة يرددون النشيد في الاجتماع الصباحي، وبدأت فرقتهم النحاسية بعزف سمفونية الضجيج التي تشكلت على النحو التالي.. فترة صمت لازمة ومعتادة في الإعلام السوري لتبييت الاستخارة وانتظار نزول الوحي، تلاها عزف بوقي نُواحي -بدون مبالغة طبعاً- لاغتيال السيد الحريري رئيس وزراء لبنان السابق، ومن ثم ضرب على الطبل رداً على افتراءات المعارضة اللبنانية واتهاماتها، والتي سمع المواطن السوري الردود عليها دون أن يسمعها، مع نفخات منفردة على الأبواق تصدر من عدة عازفين تطالب بسحب الأموال السورية من البنوك اللبنانية، وتبتكر مؤامرات وتخوّن من يخالف نظامها المنضم، وأخيراً صمت كل الفرقة دفعة واحدة وبدون مقدمات، بسبب اللخبطة غير المعقولة والمقبولة (ليس محلياً بالطبع بل عربياً ودولياً)، إلاّ من ضربة على طبل هنا، ونفخة في بوق هناك، لعازفين غير منتبهين لعصا المايسترو التي تعلن نهاية المقطوعة.

وفق هذه الخطة الاستراتيجية التي يعتبر طائر النعام مبتكر ريادتها، قاد الإعلام السورية حملته الاعلامية، على هدى خطة الدبلوماسية السورية في مواجهة الأزمات، والتي عبر عنها الوزير فاروق الشرع سابقاً، باعتبار القرار 1559 الصادر عن مجلس الأمن الدولي قراراً بشأن أمر تافه، وليس فيه مايخص سورية أو لبنان، ثم وخلال الأزمة بتصريح صادر عن وزارة الخارجية

السورية، يكتشف فيه أن القرار 1559 قرار مبيت، وكأنه يكتشف لأول مرة مايجري في العالم، وناسياً أن هناك من قدّم له السبب والذريعة، مما يشير إلى طريقة تفكير تبحث عن حجج ومسوغات في الماضي، لتبرير أخطاء عدم التعامل بجدية مع العالم من حولنا، بدلاً من البحث عن حلول لمواجهة تحديات المستقبل.

وكانت البداية مع وزير الإعلام السوري الدكتور مهدي دخل الله، الذي كاد أن يحمّل الشهيد رفيق الحريري مسؤولية موته، بسبب انسحاب القوات السورية من أماكن تواجدها السابقة، وفنّد تصريحات أمين عام جامعة الدول العربية عمرو موسى الخارج من لقاء مع الرئيس بشار الأسد، لكن موسى الذي لم يسكت له، اضطره فيما بعد إلى فقدان سماع أسئلة المذيعة شذا قيس عمر في برنامج (الحدث) على الفضائية اللبنانية، والتي حاولت التوجه إليه أكثر من مرّة خلال البرنامج، وكان رده الوحيد هو إشارته بإصبعه إلى السماعة في أذنه، ثم لم يسمع له أحد تصريحاً بعدها، وهو ماحدث مع أغلب مسؤولي الصف الثاني من أعضاء مجلس الشعب السوري، أو رؤساء تحرير الصحف السورية، الذين كان الواحد منهم يظهر لمرة واحدة على فضائية، ليقول جمله الانشائية ثم يختفي نهائياً، إلى الحد الذي جعل مقدمة حصاد اليوم الاخباري في قناة الجزيرة تعلن في إحدى الأمسيات، أن القناة اتصلت بأكثر من شخصية في دمشق للتعليق على مايحدث لكنهم لم يتلقوا ردّاً من أحد، وحتى أكون منصفاً يجب أن أعترف أنه لم يصمد على شاشات الفضائيات إلاّ المحلل السياسي أحمد الحاج علي بمفرده، ليرد على كل (الهجمات الشرسة)، حسب أحد التعابير المقدسة في قاموس الإعلام السوري.

أما على جبهة تلفزيون الأستاذ معن حيدر فقد جمع السيد نضال قبلان في برنامجه الحواري على الفضائية السورية (دائرة الحدث)، وعلى مدار حلقات عديدة، عدة معلقين سياسيين (بأسماء معروفة وأسماء مجهولة) من سورية ومصر ولبنان، وعبر الأقمار الصناعية ظهر رئيس تحرير جريدة الأهالي المصرية نبيل زكي، ومواطنه رئيس تحرير جريدة الأسبوع مصطفى بكري (صاحب الصوت العالي الذي ساهم في دفع الرئيس العراقي السابق صدام حسين إلى الهاوية)، والدكتور رفعت سيد أحمد، وقنديلي لبنان النائب السوري في البرلمان اللبناني ناصر وشقيقه غالب قنديل، ونائب الحزب القومي السوري مروان فارس، ورفيقه في الحزب غسان الشامي، والدكتور فائز الصايغ رئيس تحرير جريدة الثورة السورية، والعلامة الدكتور عماد فوزي الشعيبي، ليقول هؤلاء جميعاً رأياً واحداً لا يختلفون فيه على شيء، أو موقف، أو تحليل، مفاده أننا نضع الحقيقة كلها في جيبنا، وكان يمكن توفير المبالغ المدفوعة لحجز القمر الصناعي، أو للاتصالات الهاتفية بالاكتفاء بآخر الأسماء التي ذكرتها وحده، باعتباره يمثل خلاصة الفكر التبريري لكل الأخطاء، والتكفيري لكل رأي آخر، مادام البرنامج الحواري مهنياً في عرف الإعلام السوري هو سماع صدى صوته.

أما في خندق الصحافة الورقية السورية، فقد اجتهد معلقوها السياسيون في نبش كل المفردات والتعابير والمصطلحات من مدافن قاموس الإعلام السوري، واشتغلوا كفرقة زجل كل منهم يرد على الآخر، ويضيف له، ويثني عليه، ويفرش له، ويشد من أزره، وينام على يده، بحيث أصبحت تعليقاتهم كمن يسير في جنازة، في الفقرة التي يمرون فيها على استشهاد الرئيس الحريري، وكمن يمشي في زفة عريس، في الأسطر التي ترد فيها

كلمة المواقف الثابته، وكمن يشتبك بالأيدي في مشاجرة، في حال تطرقوا للمعارضة اللبنانية، ولاأجد أنه من المفيد للقارئ ذكر أسماء هؤلاء المعلقين، ليس استهانة بهم لاسمح الله، إنما لأني أود إحالة القارئ إلى أرشيف الصحف السورية الثلاث، لمراجعة الأعداد الصادرة لمدة خمسة عشر يوماً عقب استشهاد الرئيس الحريري، وليقوموا بتجربة بسيطة، بحيث يضعوا اسم أي معلق سياسي على مقال لأي معلق سياسي آخر، ويستمروا في تبديل الأسماء والمقالات، ليتأكدوا أن ماكتب خلال تلك الفترة مقال واحد بأسماء مختلفة.

لكن هذه الصحافة الورقية لم تخل من مقالات تجدر الاشارة إليها بالاسم، وإضاءة بعض مايحيط بها، تحاول تزوير أحداث وليّ عنقها، لخدمة غاية كتابها البرئية، ومنها مارآه السيد حسن م.يوسف في مقالة كتبها السيد أحمد تيناوي (جريدة المبكي 20/ 2/ 2005)، عن سبب عودته من أمريكا، وورد فيها ذكر الوطن عدة مرات، وبطريقة توحي بأنه سبب عودته، ليضع السيد يوسف اكليلاً من الغار على رأس كاتب المقال إكراماً لوطنيته (جريدة تشرين السورية 5/ 3/ 2005)، متجاهلاً مايعرفه القاصي والداني عمّا يسمى ب(ضرب الكريدت)، وهي مسألة يدرك كنهها بعض العرب الذين يعيشون في أمريكا بدون إقامة نظامية، حين يستولون بطرق غير شرعية على أموال من البنوك الأمريكية عبر بطاقات الإئتمان، وهو مافعله كاتب مقال جريدة المبكي مرتين، عاد بينهما مرة إلى سورية ليبدل جواز سفره ويغيّر حرفاً في اسمه باللغة الانكليزية، حتى يستطيع العودة إلى أمريكا بسجل مالي جديد ونظيف ويعيد (ضرب الكريدت) من جديد، وهكذا تحول الفساد إلى نوع مشرّف من الوطنية في عرف السيد يوسف، الذي

أسف لعمل كاتب مقال جريدة المبكي في كازية خلال وجوده في أمريكا، وكأن الأخير كان يحمل شهادة في علوم الكومبيوتر، لاشهادة الدراسة الاعدادية، فقررت أمريكا عدوة الشعوب ضرب الحائط بعلومه العليا، ولم يكتف السيد حسن م.يوسف بترويجه للفساد، بل روج للاستبداد (جريدة تشرين السورية 9/ 3/ 2005)، حين روى (قيلاً عن قال)، عن أم لبنانية قلقها من الطبخة الأمريكية التي تعد للمنطقة، لأن ابنها الأكبر يمضي معظم وقته في اعتصام ساحة الشهداء، لقاء عشرين دولاراً في اليوم، إضافة لوجبة طعام دسمه، مذكراً بأن الأمريكان يحاولون تكرار سيناريو أوكرانيا حيث كانوا يقدمون للمعتصمين، إضافة للمال والطعام الملابس السميكة بسبب تدني درجات الحرارة هناك.

وفي نفس الاتجاه غير المسؤول في الكتابة، ظهرت بعض الأقلام تطالب بعقاب اقتصادي للبنانيين، فعلى الرغم من أن شعارات العروبة لاتزال سارية المفعول في سورية، ومصطلحات من قبيل شعب واحد في بلدين، لم تنته صلاحيتها رسمياً في توصيف العلاقة بين سورية ولبنان، إلاّ أن ذلك لم يمنع السيد أيمن قحف (جريدة البعث السورية 2/ 3/ 2005) من مطالبته بدافع وطني، بسحب الأموال السورية من البنوك اللبنانية، وإعادتها إلى سورية مشيداً بموقف غرفة تجارة وصناعة مدينة حمص السورية، وهو يصب في نفس مانقله السيد عدنان عبد الرزاق، في نفس عدد جريدة البعث المذكور عن السيد غسان قلاع نائب رئيس غرفة تجارة دمشق، وماطلبه صراحة السيد عبد الفتاح العوض في أن يقول المال السوري كلمته، وأن يكون لرجال الأعمال السوريين موقفهم (جريدة تشرين السورية 6/ 3/ 2005)، وبطريقة تناقض كل التوجه القومي والعروبي، الذي يعتبره حزب

البعث الذي يحكم سورية، جزءاً من الشرعية التي يبني عليها وجوده وحكمه، ثم ألم يسأل أي من كتّاب هذه الدعوات أنفسهم أن قارئهم -لو وجد- سيتساءل عن السبب، الذي جعل رجال الأعمال السوريين يودعون أموالهم في البنوك اللبنانية، وسيتساءل أيضاً أنه لو حدث وسحبوها أين سيودعونها برأيهم؟ وسيتساءل من جديد هل هذه الدعوة لسحب الأموال السورية، موجهة لرجال الأعمال السوريين وحدهم، أم هي موجهة أيضاً للمسؤولين السوريين وأبنائهم(!!).

وهذا ماحدث من تعامل الأقلام التي سمعت صوت النفير الإعلامي ولبته من جديد في قضية تصريحات وزير خارجية الأردن هاني الملقي، الذي طالب بتنفيذ فوري للقرار 1559، (وهو بالمناسبة موقف سورية الرسمي الآن)، فالتقطت أقلام الصحافة السورية شيفرة النداء وفككتها، وبدأت بالصراخ ولطم الخدود، و(فرشت له الملاية) على حد تعبير اخوتنا المصريين، ولعنت سنسفيل أبو الأردن وساسته وسردت تاريخ خياناتهم، على الرغم من أن حبر باقة من الاتفاقيات، التي وقعها رئيسي وزراء سورية والأردن لم يجف بعد، ونفس الإعلام الذي رحب بهذه الاتفاقيات وأصوات تهليله لها لاتزال في آذاننا، ينقلب 180 درجة، بالطريقة الغوغائية التي كف العالم كلّه عن الكتابة بها، أو السماع لها.

كل هذا حدث في الإعلام السوري المقروء والمشاهد، لكن لو سألت مواطناً افتراضياً لم يقرأ سوى الصحف السورية، ولم يشاهد إلا التلفزيون السوري، خلال الخمسة عشر يوماً التي أعقبت استشهاد الرئيس الحريري، ماالذي حدث في لبنان والعالم، لما استطاع أن يجيب بأكثر من القول بأن (الرئيس رفيق الحريري استشهد، وهناك عصابة تتاجر بدمه مستعينة

بالدعم الخارجي، لكن الشعب اللبناني معنا ومع مواقفنا المبدئية الثابته) فهل هذا الذي حدث حقاً!؟!

لاأفهم حتى اليوم لماذا يصر الاعلام السوري أن تكون المواقف الوطنية، عدوة لدودة للمهنية وللحرفة الصحفية، ولماذا يجب بالضرورة في رأي هذا الإعلام أن يكون استرجاع الحق المغتصب، مناقض للحرية، ولأي رأي مختلف أو متباين أو آخر؟ ولماذا ينجح الشقيق الأصغر لبنان في أن يصبح عبر إعلامه (إضافة طبعاً لإرادة الحرية)، أكبر من مساحته الجغرافية وحجمه السياسي؟ في حين تصبح شقيقته الكبرى سورية عبر إعلامها (بالإضافة إلى لونها الواحد)، أصغر من حجمها الجغرافي والسياسي؟

أعود إلى البداية فبمناسبة مرور 42 عاماً على (الثامن من آذار)، وبمناسبة آخر التحديات التي تعرض لها الإعلام السوري، وخرج منها خاسراً بالضربة القاضية، لو استعرت مصطلحات الملاكمة، وبإيقاف المباراة لعدم التكافؤ، لو استعرت مصطلحات كرة القدم، خسارة ولاخسارة يابان الحرب العالمية الثانية، أقول: اتخذوا أهم قرار إصلاحي في الإعلام بإغلاق التلفزيون والصحف السورية الثلاث، وأعيدوا مئات المجلات والصحف التي كانت تصدر قبل إيقافها وإلغائها، واتركوا الناس تتدرب وتتعلم، وتخطئ وتصيب، وتفشل وتنجح، ليعود الصحفي السوري الذي ذوبتموه (وأنتم اليوم أحوج الناس إليه)، لصالح أسماء خسّرتكم هذه المعركة الإعلامية الأخيرة، وستخسركم معارك إعلامية قادمة، فيما لو استمرت هذه السياسة الإعلامية والعقلية التي تديرها لا سمح الله طبعاً!!

جريدة «النهار» اللبنانية، 21/ 3/ 2005

المصافحة التي أراها «تاريخية»

سواء كان خبر حدوث المصافحة المزدوجة بين الرئيس السوري بشار الأسد والاسرائيلي موشيه كتساف «نكتة بايخة» (حسب تعليق المحلل السياسي السوري عماد فوزي الشعيبي لقناة الجزيرة الفضائية 8/ 4/ 2005) أو لم يكن نكتة بايخة، فإن أحداً لم يكن ينتظر من السيد الشعيبي أن يقول أكثر مما قاله، وأن لايسخر بابتسامته الشامته من أخبار الإعلام العالمي الرخيصة، لأن السيد الشعيبي، وفي كل تصريحاته يخلط بين دور (المحلل السياسي)، و(المحلل) في الشرع الاسلامي الذي يتزوج إمرأة طلقها زوجها ثلاث مرات، فأصبحت محرمة عليه مالم يتزوجها رجل آخر، فيسمى حسب المصطلحات الشرعية (المحلل)، ويطلق عليه حسب التعبير الشعبي الدارج (المجحّش).

وسواء كانت المصافحة المزدوجة التي حدثت بين الرئيسين السوري والاسرائيلي في روما «عرضية» (كما وصفتها وكالة الأنباء السورية سانا 8/ 4/ 2005)، أم لم تكن عرضية، وسواء «لم يكن لها أي مغزى سياسي» (على حد تعبير «سانا»)، أو كان لها مغزىً سياسياً، وسواء كانت «لا تغيّر في مواقف سورية المستندة إلى الثوابت المعروفة» (حسب مصطلح «سانا»)، أو تغيّر في مواقف سورية المستندة إلى الثوابت المعروفة، فإن أحداً لم يكن ينتظر من وكالة الأنباء السورية «سانا»، أكثر مما قالته، لأن هذه الوكالة التي تعتبر أحد أعمدة وثوابت الإعلام السوري، كانت تؤدي عملها الإعلامي دائماً على طريقة (السيريلانكيات) التي يعملن في خدمة المنازل، بفم ساكت وقلب خاشع وأجر ثابت.

وسواء كان ''رفض الرئيس بشار الأسد مصافحة اليد التي مدت إليه سيسيء لسمعة سوريا'' (حسب ماقالته أوساط رسمية سورية لمراسل صحيفة النهار بدمشق 10/ 4/ 2005)، أم لم يكن يسيء، وسواء كان ماقالته نفس الأوساط الرسمية السورية صحيحاً، في أنّ ''سورية التي يقولون عنها محاصرة ومهمشة ومهزومة، شغلت الاعلام العالمي على مدار الـ 24 ساعة الماضية، بسبب مجرد مصافحة بالصدفة، يثبت أن دمشق تملك خيارات استراتيجية كبيرة وأن هناك أوراقاً كثيرة للمستقبل''، أم لم يكن صحيحاً، فإن أحداً لم يكن يتوقع من هذه الـ(أوساط الرسمية السورية) غير ماقالته، لأنها تتعامل مع أي حدث يقوم به، أو تصريح يدلي مسؤول سوري، بالطريقة التي كان يتعامل بها حواريي المسيح مع السيّد المسيح، وبالطريقة التي حصل فيها أبو بكر على لقب (الصدّيق)، في علاقته بالرسول العربي محمد.

وبالرغم من كل ما قيل وسيقال، حول أسباب حدوث المصافحة ودواعيها، وما إذا كانت مصادفة أو مرتّبة، وما إذا كانت مجرد حدث برتوكولي عابر، أو خطوة تمهيدية لخطوات قادمة، وما إذا كانت لاتغيّر في مواقف سورية المستندة إلى الثوابت المعروفة، أو كانت تغيّر، أو بقيت الثوابت المعروفة ثوابتاً أصلاً، أو أنها جزءاً من خيار السلام الاستراتيجي لسورية، أو أن خيار المقاومة ودعم حزب الله اللبناني ومنظمتي حماس والجهاد الفلسطينيتين لم يعد مجدياً، أو أنها إعادة انتاج للأسلوب الفيتنامي الذي يحارب بيد ويفاوض باليد الأخرى، أو أن أجواء السلام والمحبة التي فرضتها جنازة الحبر الأعظم، جعلت كل من حضرها ينصاع لقول السيد المسيح (أحبوا أعداءكم، وباركوا لاعنيكم)، وبالرغم من كل مباخر

الموالين، التي ترش دائماً على الموت سكر، وتصيّد المعارضين الذي يجعل من الحبة قبه، فإن هذه المصافحة السورية الاسرائيلية على أعلى مستوى (البروتوكولية، المصادفية، سموها ماشئتم)، تخرج من ذاكرتي كسوري تاريخاً من الجروح والآلام، من أول حماسيات العداء لاسرائيل (كانت في الماضي تسمى رسمياً وإعلامياً وشعبياً الكيان الصهيوني)، ورميها في البحر، التي درسناها في كتب المدرسة، وأخرجنا في المسيرات المنظمة لنشجبها، ونشنق دمى على شكل الرئيس المصري الراحل أنور السادات بعد توقيعه لاتفاقية كامب ديفيد، إلى آلاف الذين سجنوا وسحلوا وذبحوا على الجبهة الداخلية – بتهمة خدمتهم للمشروع الصهيوني – دفاعاً عن الجبهة الخارجية، إلى مئات ألوف الذين ماتوا في الخطوط الأمامية والخطوط الخلفية من أجل تحرير فلسطين، إلى السنوات السوداء التي عاشها الناس، وهم يترجّون ويتوسطون ويداورون ويناورون، من أجل الحصول على قنينة زيت وعلبة سمنة وربطة مناديل ورقية، وهم راضين مرضيين، كون تجوعيهم جزء من تحقيق مشروع (التوازن الاستراتيجي)، المعد لمحاربة اسرائيل، إلى القصائد والمقالات والمهرجانات الخطابية والمؤتمرات التضامنية، التي كانت هي جبهة الحرب الوحيدة المفتوحة على اسرائيل، إلى أعمارنا التي ضاعت، وثرواتنا التي نهبت، وأعراضنا التي انتهكت، إلى أبنية المخابرات التي شيّدت وشهقت في العلو، والأقبية التي حفرت وخضعنا في للتحقيق فيها، لأننا نلفظ – مجرد لفظ – كلمة ديمقراطية بسبب وجود هذه الـ(إسرائيل)، إلى الاتهامات التي كيلت لنا بسبب مقال كتبناه مرة لأن بلدنا يمرّ بحالة حرب مع اسرائيل، ومرة لأننا نكتب في جريدة مثل (النهار) "المرتبطة باسرائيل"، إلى قصائد نزار قباني ومحمود درويش وممدوح عدوان وأمل دنقل.

ماذا سأعد لأعد وقد صرفنا أعمارنا بقصد لا بمصادفة، وبإيمان لاببروتوكول، وبمغزى سياسي لاعفو الخاطر ونحن مؤمنين بحقنا، ومطالبين بأرضنا، وكيف سأنظر إلى وجهي في المرآة الآن، وأنا الذي اشتبكت (وسط بهو فندق شيراتون بغداد وأمام كل مخابرات صدام حسين)، في شجار علني عنيف مع رئيس وفد تضامني ذهبنا به إلى العراق قبل غزوه بأيام معدودة، فقط لأنه حيا صدام حسين بحجة أن هذا معادٍ لأمريكا واسرائيل، وخرج عن هدف زيارتنا الذي اتفقنا عليه مسبقاً في دمشق في التضامن مع شعب العراق لا مع نظامه، وقلت له أن ماقاله كان يحتاج إلى موافقة الوفد بالاجماع لا بالأكثرية، وجمعت التواقيع على بيان يبرئ الوفد مما قاله، وكاد الوفد يصبح وفدين، ورفضت لقاء مع نائب رئيس الوزراء العراقي وقتها طارق عزيز ومصافحته رغم أنه عربي الوجه واليد واللسان، وأجبرت آخرين على رفضه، فانتهت زيارتنا على عجل، وعدنا عند خروجنا لنقف على منفذ الحدود العراقي، ونفتش بحجة تهريب الآثار، رغم أن نفس المنفذ فتح لنا قاعة الشرف عند دخولنا(!!).

حتى أكون منصفاً، من الصعب على جيلي الذي ولد وتربى على العداء لاسرائيل، أن يستسيغ أي صيغة سلام معها، رغم كل الظروف التي أعرفها والتي لاأعرفها، وقد تتعامل أجيال أخرى بحدة أقل مع هذه المسألة، ولكن عقلي يستطيع أن يدرّب قلبي ويلجم عواطفي، في حال عادت أراضيَّ المحتلة كسوري إليّ، لابمعناها العقاري إنما بمعناها الوطني، وساعتها سأحاول ايجاد المبررات لنفسي، على الرغم من أن دم الذين ماتوا عداءاً لاسرائيل، كان لاعادة الحق من دون أن يرفرف العلم الاسرائيلي على مبنى سفارة لها في سورية، ومن دون استقبال لأي اسرائيلي ومصافحته،

وإذا كنت مستعداً لتدريب نفسي على قبول سلام مع اسرائيل، مبني على إعادة الأراضي المحتلّة، وللأسف هذه المرّة كعقار لا كوطن، فإنني بعد مصافحة الثامن من نيسان المزدوجة، التي أراها تاريخية -على عكس ماتراها وكالة الأنباء السورية سانا- مصادفة وعرضية وبروتوكولية وبدون مغزى سياسي، فإنني سأدرب نفسي أيضاً كسوري، على أن لاأقبل بعدها من يريد مصادرة ماتبقى من عمري، ويحجر على حريتي، ويمسخ انسانيتي، ويلغي مواطنيتي، ويعتبرني أجيراً لاشريكاً في بلدي بحجة المعركة المفتوحة مع إسرائيل.

جريدة «النهار» اللبنانية، 13/ 4/ 2005

بعين مشاهد سوري:
ما الذي يجمع رستم غزالة بحسن نصر الله؟

استفزتني كسوري يعيش في دمشق الصورة التذكارية التي جمعت أمين عام حزب الله اللبناني السيد حسن نصر الله، بمسؤول المخابرات السورية رستم غزالة في لبنان، وهما يقفان مبتسمين، وبينهما البندقية الاسرائيلية التي يقدمها الأول للثاني كعربون وفاء، واستفزني أيضاً وقوف قائد القوات السورية اللواء فايز الحفار في خلفية الصورة، بينما يقف مسؤول المخابرات السورية، الأدنى رتبة عسكرية (عميد) في المقدمة، وماتبعها من تصريحات السيد غزالة، بينما كان السيد الحفار يقف صامتاً قربه طوال الوقت، استفزني المشهد بكامله، ليس من الناحية البروتوكولية فقط، وإنما سياسياً وإنسانياً وأخلاقياً.

وإذا كان هذا المشهد استفزازياً بالنسبة لسوري يعيش في دمشق، فكيف يكون بالنسبة للبناني يعيش في لبنان، كانت –حتى قبل أيام– حياته وعمله وعرضه وماله وحريته وحاضره ومستقبله وحتى موته، رهن بقرار أو كلمة أو إشارة أو ربما إيماءة من مسؤول المخابرات السورية السيد رستم غزالة(!!) فإذا كان ربع (وليس كل) مااتهم به مسؤول المخابرات السورية في لبنان صحيحاً، وهو مايردده اللبنانيون في السر والعلن، ومن بينهم الكثير من (موالي) سورية، (ولن أنسى ماقاله لي سائق سيارة أجرة مؤيد للمقاومة، وهو يقلني من بيروت إلى دمشق، مشيراً نحو بلدة عنجر ونحن نمر قربها، هنا القصر الرئاسي، لقد قتلوا أخي أمام عيني)، وإذا كان خمس (وليس كل) مانشر في الصحف، ومابث في التلفزيونات، وماتداول على

الألسنة من سير وأخبار وفظائع وارتكابات بأصابع، تشير نحو مسؤول عنجر السوري، فقد وضع أمين حزب الله اللبناني نفسه في وضع لايحسد عليه باستقباله وهديته وابتسامته ومصافحته وصورته التذكارية، مع مسؤول المخابرات السورية، التي صدمت السوريين قبل اللبنانيين، وكسرت صورته التي رسمتها عواطفهم لهم.

قد يكون للسيد حسن نصر الله أسباب ومبررات وحسابات سياسية وقومية وجهادية، لكن هذه المبررات لن تقنع أحداً، بمن فيهم مطلقوها، فهم يعلمون أن المخابرات الوالغة في فساد الأرض، لاتعرف من السماء (هدف المقاومة الأسمى)، إلاّ الأرواح التي ترسلها إليها بعد فصلها عن أجسادها.. وقد يظهر أحد من مناصري حزب الله، ليفلسف ويحلل ويشرح ماجرى على أنه لقاء برتوكولي عابر، أو محاولة وفاء لسورية، أو يبتكر سبباً آخر، لكن كل تحليلات الأرض لا تستطيع أن تزيل ما فعلته الصورة الواضحة المعبرة والمذهلة، التي جمعت رجلي المقاومة والمخابرات.. وقد يفضل الحزب الصمت وعدم التعليق على هذا اللقاء الوداعي، كما صمت ولم يعلق (حرجاً أو تهرباً)، على الحدثين التاريخيين السوري والايراني في جنازة الحبر الأعظم قبل فترة!

لكن حزب الله يعلم بالتأكيد أنه ليس فقط مجموعة بنادق وصواريخ، ومقاتلين وطائرات استطلاع، ودعم إيراني ورعاية سورية، وهو يعلم حتماً أن قلوب الناس (لبنانيين وعرباً) التي خفقت لعملياته، وأعينهم التي حملته بين البؤبؤ والجفن، هزمت اليوم وهي ترى أمينه العام مع مسؤول عنجر يتبسمان، ويتصافحان، ويتهاديان، وتشاهد دماء الشهداء تختلط بدماء ضحايا التعذيب، والأيدي التي ترفع شارات النصر، تصافح الأيدي التي

تحمل أسواط وعصي الضرب.

كان على أمين حزب الله أن يجد مبررات للاعتذار عن اللقاء، والهدية، والابتسام، والمصافحة، والصورة التذكارية، مع مسؤول عنجر السوري، وبحجة سورية، معتمداً على ماذكره الرئيس بشار الأسد -بدبلوماسية شديدة- عن (الأخطاء) السورية في لبنان، ومن البدهي أن مرتكبي هذه الأخطاء ليسوا ملائكة، أو شياطين غير مرئيين، بل جهاز مخابرات موجود على الأرض لافي السماء، وربما كان عليه أن يكون أكثر صراحة، ويفعل مافعله الزعيم الوطني وليد جنبلاط الذي لم يرافق نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام إلى الباب، أثناء وجوده للتعزية في بيت الشهيد رفيق الحريري، رغم صداقتهما، لأنه - كما صرّح - لم يرد أن يجرح مشاعر اللبنانيين المفجوعة، وأظن أنه كان بإمكان أمين عام حزب الله اللبناني ايجاد أكثر من مبرر مقنع، للاعتذار عن اللقاء والهدية والابتسام والمصافحة والصورة التذكارية، لأن كسر صورته التي بنيت عاطفةً عاطفةً، أكثر أهمية بالنسبة له ولمقاومته، من كل مخابرات العالم.

بعين مشاهد سوري يرى في المخابرات رعباً وسجوناً واضطهاداً وضحايا، فجعت باللقاء وبالابتسامات السخية التي أهرقت فيه، وبتجاوز البرتوكول العسكري الذي يُقرأ على أكثر من مستوى، وأكثر مافجعت به مزج المقاومة بالمخابرات.

أكثر ماأنا متشوق له الآن رؤية صورة اللقاء، بابتساماته وهديته بعين مشاهد لبناني...

جريدة «النهار» اللبنانية، 26/ 4/ 2005

طريقا «جو ألبو» لتحسين صورة سورية إعلامياً

إذا صح مانشرته جريدة «النهار» اللبنانية قبل يومين حول تعاقد السفارة السورية في واشنطن، مع جو ألبو – أحد أصدقاء الرئيس الأمريكي جورج بوش القدامى – لتحسين صورة سورية السلبية في أمريكا، فأظن أن مشكلة صورة سورية الاعلامية في الخارج تكون قد حلّت نهائياً، خاصة وأن (السفارة السورية في سورية) – وهذا ليس خطأ مطبعياً – سبق لها أن افتتحت مركزاً إعلامياً في لندن، وعهّدت تحسين صورة سورية أوربياً، إلى مديره الدكتور يحيي العريضي، ولم يبق أمام (السفارة السورية في سورية) سوى مهمة واحدة، هي تحسين صورتها لدي مواطنيها في الداخل، وهي مسألة معقدة وشائكة، ليس بسبب غياب الحوار الوطني الذي تتحدث عنه المعارضة (المزعجة) على طريقة مريم نور، وليس بسبب المادة الثامنة من الدستور السوري، التي لاتعترف أن هناك قانوناً دولياً صدر بتحرير العبيد، وليس بسبب قانون الطوارئ الأبدي الذي أصبح من الثوابت المبدئية، إنما ببساطة، لأن تحسين صورة سورية في الداخل لن يكون مأجوراً، فتحسين صورة سورية في الخارج سواء في لندن أو واشنطن، ستدخل فيه العملة الصعبة، ولابد لأحد ما أو لعدة آحاد ما، أن (يلحسوا إصبعهم) على حد التعبير السوري الأشهر اليوم، وسيتوسط فيه هذا لذاك، بحيث تظهر صلة الرحم بأوضح معانيها!

وأنا هنا لاأعترض على الدولارات التي تقتطع من أموال الشعب السوري، ليمول بها مركزاً إعلامياً في لندن، خطته في تحسين صورة سورية الإعلامية، هي نفس الخطة التي كان يعتمدها كل طالب عربي في دول المنظومة

الاشتراكية سابقاً، عندما يرسب في مادة ما، فيعزي نفسه وأهله بأن أستاذ المادة يهودي، وهي كلمة مفحمة تختزل تاريخاً من حكم الأنظمة العربية لشعوبها، وحبة الصداع المهدئة والمريحة لكل الاخفاقات العربية، ولكني أعترض على الدولارات التي ستدفعها السفارة السورية في واشنطن، لشركة أمريكية، يملكها جو ألبو لتحسين صورة سورية في أمريكا، لأنها تطبق المثل الشعبي (رزق الهبل ع المجانين) تطبيقاً حرفياً، وتضع السفارة السورية في واشنطن، موضع الصعيدي الذي نزل إلى القاهرة واشترى الترامواي، وأتمنى من الله أن لاتأتي نتائج تحسين صورة سورية في أمريكا على يد جو ألبو، على طريقة نتائج الرحلات المكوكية التي جالت بها الوزيرة السورية بثينة شعبان العالم لتحسّن صورة سورية، وتربط علاقات، وتعيد صلات، وتلتقي بنواب الكونغرس الأمريكي ذوي الأصول العربية، فكانت النتيجة صدور قانون محاسبة سورية بموافقة نواب الكونغرس ذوي الأصول العربية إياهم، والذي موّل الشعب السوري نفقات سفر الوزيرة شعبان للقائهم، ثم لنكن حسني النية ونفترض أن المسألة جدية، وليست (سبوبه) لتحسين الدخل أو تأمين الشيخوخة، أو الاطمئنان على مستقبل الأولاد والأحفاد، ما الذي سيفعله جو ألبو لتحسين صورة سورية؟

على طريقة قارئي البخت في فناجين القهوة سيجد أمامه طريقان، الأول هو الأسلوب السوري بأن يأخذ جزئاً من الدولارات التي لهفها من (الصعيدي السوري)، ويذهب إلى وزارة الخارجية والبنتاغون والكونغرس والبيت الأبيض، ليفتح درج الوزيرة كونداليزا رايس ويضع فيه رزمة معتبرة من الدولارات، التي ستتجاهل الآنسة كونداليزا قراءة عبارة الايمان بالله المطبوعة عليها، مكتفية بقراءة فئاتها، فتتغير لهجتها، وتذهب من فورها

إلى قاعة المؤتمر الصحفي في وزارتها، بعد أن تقفل الدرج بالمفتاح، وتقول بغنج: ياعيني على سورية، لقد شاهدت اليوم على الفضائية السورية برنامج (دليل سياحي) وأعجبت بسورية، وأنا لو لم أكن أمريكية لتمنيت أن أكون سورية.

وبعد أن يطمئن جو ألبو إلى أن الأنسة كوندليزا شفيت من الرهاب الأمريكي بالدواء السوري، سيخطف رجله إلى البنتاغون، ويرسل ظرفاً إلى الوزير دونالد رامسفيلد مع مدير مكتبه، وبعد أن يعد رامسفيلد دولارات الرزمة، ويضعها بعناية في جيب جاكيته، أمام قلبه مباشرة، تختفي نظرته الممتعضة، ويخرج باسماً من فوره، ليقول للصحفيين الجملة الشهيرة التي تزيّن بها مجلة (فنون) السورية كل أعدادها: لكل انسان في العالم وطنان، الوطن الذي ولد فيه وسورية، ويضيف مرتجلاً بخروج واضح عن النص، بعد أن يتحسس رزمة الدولارات في جيب جاكيته، وبوحي منها: أما أنا فوطني الوحيد هو سورية.

وعندها سيطمئن جو ألبو إلى انتظام دقات قلب رامسفيلد، وتوافقها مع دقات ساعة التلفزيون السوري، يغادر إلى الكونغرس، وُيخرج السيناتورة إليانا روس راعية قانون محاسبة سورية من الجلسة المنعقدة، ويضع في حقيبة يدها ظرفاً محشواً بالدولارات، فتعود من فورها إلى الجلسة، وتسحب توقيعها عن كل مشروع قانون معادٍ لسورية، وتقدّم للكونغرس مشروعاً جديداً لاصلاح الكونغرس الأمريكي، عن طريق الاستفادة من التجربة البرلمانية الفريدة في سورية، منوهة بوعي النواب السوريين ومستشهدة بمداخلة النائب محمد حمشو التلفونية التي تلاها عن (صدر وظهر وبطن) قلب في حلقة برنامج (الاتجاه المعاكس) التي استضاف فيها فيصل القاسم

الدكتور عبد الرزاق عيد، والسيد كريم الشيباني الذي يجمع في شخصه - بمعجزة لا تحدث إلاّ في سورية - حزباً بكامله (أمانة عامة ومكتب سياسي ولجنة مركزية وأعضاء).

وسينهي جو ألبو جولته في البيت الأبيض.. ظرف لديك تشيني، عقد من الألماس للورا بوش، وكم دولار هنا، وكم دولار هناك، وعندها ستتوحد الادارة الأمريكية كلّها في وجه بوش، وتخيّره بين التنحي عن منصبه، أو تغيير موقفه من سورية، التي تحسنت صورتها على يد الله، ويد جو ألبو، ودولارات السفارة السورية، وساعتها سيخرج السفير السوري في واشنطن عماد مصطفى بوجه مرتاح وغير ممتقع هذه المرة، ليعلن في (خيمة صفوان) الاعلامية على CNN أن المهمة أنجزت.

إذا نجح جو ألبو في استخدام هذا الأسلوب السوري المجرّب والناجح، في تحسين صورة سورية الاعلامية في أمريكا، فستكون مهمته قد أنجزت، وحلال عليه الدولارات التي اقتطعت من السوريين، فحسب خبرتي بالعقل السوري، أرى أن اختيار جو ألبو بالذات لانجاز هذه المهمة، كان هدفه استخدام هذا الأسلوب السوري في التسويق، باعتباره أحد أصدقاء الرئيس جورج بوش القدامى، وأحد أعضاء إدارته السابقين، ولذلك فهو - حسب عقل من استخدمه - وسيط رشاوى، أكثر من كونه مسوّقاً إعلامياً أو إعلانياً، أو رجل علاقات عامة، أما إذا لم ينجح، ولجأ إلى الطريق الثاني وهو التسويق حسب الأسلوب الأمريكي، فسيكون في مشكلة كبيرة، وموقف أكثر إحراجاً، من موقف المرأة التي حبست قطة فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، حسب ماجاء في الحديث الشريف الذي نقله الزميل أبو هريرة، لأنه عليه عندها،

أن يبحث عن معطيات واقعية لتسويق صورة سورية إعلامياً، وسيتلفت حوله كثيراً، ويضرب جبهته طويلاً بالجدران، وسيشعر أن وضعه أصعب من وضع سيدنا يوسف، بعد أن ألقاه إخوته في البئر.

فلو جلس جو ألبو أمام شاشة التلفزيون، ليبحث عن بضاعة إعلامية يسوق بها سورية، وشاهد برامج المنظمات الشعبية، من الطلائع إلى الشبيبة إلى الطلبة إلى الحرفيين، سيترك حملته الدعائية ليصبح أحد المداومين في العيادات النفسية، ومصحات الاستشفاء من الكآبة والوساوس القهرية، ولو وقع بين يدي جو ألبو عدد جريدة الشرق الأوسط الصادر في 24/ 10/ 2004، وقرأ فيه تصريح وزير الاعلام السوري الدكتور مهدي دخل الله، الذي اعتبر فيه أن (سورية اعلنت اكثر من مرة ان وجود جيشها مؤقت في لبنان، وبعد فترة قد تضطر الى طلب مساعدة من الجيش اللبناني في سورية، والكثير من السوريين يتمنون رؤية الجيش اللبناني في شوارع دمشق)، فسيكسب الاسلام رجلاً صالحاً يدخل في دعوته، بعد أن يرفع محمد جو ألبو -كما سيسمي نفسه- سبابتيه في الهواء ناطقاً بالشهادتين، ناذراً قضاء ماتبقى من عمره في قراءة (سورة الفلق).

لكن المصيبة لو قرر جو ألبو وضع شعار الاصلاح، الذي تردده وسائل الاعلام السورية ثلاث مرات في اليوم (بلعاً) عن طريق الفم، قبل الأكل وبعده، عنواناً لحملته التجميلية لصورة سورية إعلامياً، كونه سيكتشف أنه يعمل في المكان الخاطئ والاتجاه الخاطئ، لأن المطلوب عندها سيكون تحسين صورة أمريكا في سورية إعلامياً، وليس العكس.

أخشى أن نستيقظ ذات صباح ونفاجأ بأن جو ألبو متعهّد تحسين صورة سوريا في أمريكا، قد اتخذ قراراً باعتزال مهنة العلاقات العامة والتسويق

الإعلامي والإعلاني، وفضّل السفر إلى مجاهل غابات افريقيا، ليعمل في اصطياد الحيوانات المفترسة، فهي مع كل خطورتها، أكثر سهولة من المهمة الشاقة التي تعاقدت معه السفارة السورية في واشنطن لإنجازها.

جريدة «القدس العربي»، 13/ 5/ 2005

رفعت الأسد التلفزيوني:

«لوك» جديد لضابط الارتباط السابق بين الدنيا والآخرة

ربما لعن قائد سرايا الدفاع السورية السابق رفعت الأسد في سرّه كثيراً الزمن، الذي اضطره لاستبدال الانزالات العسكرية التي كان يجريها في أيام عزّه الثورية، بالمروحيات والحوامات (التي كان لمرورها شكل وهيبة ونتائج الموكب الرسمي لملاك الموت عزرائيل)، والجنود (الذين كان لمرأى بدلاتهم المموهة مفعول المعجزات، كونها تدفع الأشد إلحاداً إلى الايمان، والاسراع بنطق الشهادتين، موقناً أن أجله قد دنى، وساعته قد حلّت، وهو على بعد خطوتين من ملاقاة وجه ربه)، والرصاص الحي (الذي يعيد توصيف الانسان من كونه كائناً يمشي على قدمين، إلى نوع من الزواحف، أو كائنٍ يمشي على أربع في أحسن الأحوال)..

ربما لعن قائد سرايا الدفاع السابق في سرّه كثيراً الزمن الذي اضطره لاستبدال كل ذلك، بعملية إنزال إعلامية كل آلياتها لاتزيد عن عدة ميكرفونات وكاميرات، من تلك التي يتشارك في استخدامها بكل أسف مع الفنانين والمطربين، وجنودها مجموعة مذيعين ومذيعات يرتعبون من منظر سكين لتقشير الفاكهة، وسلاحها بضع كلمات ووعود وتأكيدات، أكثر إقناعاً منها تأكيدات بائعي البطيخ وهم ينادون معلنين بأن بطيخهم حلو وأحمر.

وربما لعن قائد سرايا الدفاع السابق أكثر، الزمن الذي حجّم كل انجازاته العسكرية السابقة، بفوز هزيل تمثل في الاستيلاء على الخبر الأول في نشرات الأخبار، لبعض المحطات الفضائية العربية خلال الأسبوع الماضي،

ويمكن لأبو مصعب الزرقاوي أن يسرقه منه بتفجير واحد، بعد أن كان قائد سرايا الدفاع السابق في زمن مضى، يستطيع أن يحتل ليس فقط نشرات أخبار بكاملها، بل ويغيّر أخبار الطقس في النشرات الجوية، فيجعل الثلج يندف في حزيران، ودرجة الحرارة ترتفع إلى الخمسين في شباط، لو اقتضت مصلحة الثورة التي اختصرها بشخصه ذلك.

للأسباب السابقة ولغيرها، لا أظن أن كسب قائد سرايا الدفاع السابق لمعركته التلفزيونية، بظهوره على الشاشات خلال الأسبوع الماضي بكامله أقنعه، فقائد سرايا الدفاع السابق يفضل الطريقة التي كسب بها حملاته العسكرية في الجبهة الداخلية في سورية، (والتي كان يجريها كبروفات تمهيداً لمعاركه الكبرى التي لم يتسن له خوضها على الجبهة الخارجية)، على ظهور تلفزيوني يمكن أن يغطي عليه خبر عاجل مفاجئ، عن تحرش جنسي جديد يقوم به مايكل جاكسون مثلاً.

وقائد سرايا الدفاع السابق واضع الخطة الإعجازية الثنائية المنفعة، التي تهدف إلى تنظيف البيئة والحد من البطالة في نفس الوقت، والذي نجح في تقديم تجربة عملية لها في مدينة حماه السورية، حين تمكن من تخفيف تلوث الأوكسجين، باعتماده على نظرية غير مكلفة مادياً، تقوم على انقاص عدد الذين يستهلكون الأوكسجين النظيف بشهيقهم، ويلوثون الجو بثاني أوكسيد الكربون بزفيرهم، وبتنفيذه لهذه الخطة البارعة أوجد فرص عمل كثيرة، في مهن رواجها مرتبط بالعالم الأخر، كحفاري القبور، وموظفي دفن الموتى، وقراء القرآن الكريم، ومؤجري الكراسي، ومتعهدي تقديم القهوة لوازم التعازي.. قائد سرايا الدفاع السابق هذا، لن يقنعه أن يصبح مجرد خبر بعد أن كان صانع الأخبار؟!

وقائد سرايا الدفاع السابق الذي ابتكر الأسلوب الأقل تكلفة لحل أزمة السكن، وقام بإجراء تجربة ناجحة له في سجن تدمر، امتدت فوائدها من الحياة الأرضية، لتشمل الدار الآخرة، فزاد في ضغط وأوقات عمل ملكيي الحساب أنكر ونكير، وخلق إزدحاماً مرورياً خانقاً على الأتوستراد الذي يصل الأرض بالسماء.. قائد سرايا الدفاع السابق هذا لن يقبل أن تختصر فتوحاته بمجرد خبر تلفزيوني لاتزيد مدته عن دقيقة في أحسن الأحوال؟!

وقائد سرايا الدفاع السابق الذي نبش دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة، ونفذها فوراً في شوارع دمشق الرئيسية، حين قامت مظلياته بنزع حجاب النساء، فجعل أفكار قاسم أمين التي ناضل من أجلها سنين طويلة، أمراً واقعاً خلال ساعة واحدة.. قائد سرايا الدفاع السابق هذا لن يتحمل جحوداً من نوع خروج معلقين أو محللين سياسيين، لينظّروا أو يعارضوا موضوع عودته إلى سورية، وهو الذي طالما اعتبر أن المقابر هي المكان المثالي لسكن معارضيه؟!

صحيح أن قائد سرايا الدفاع السورية السابق تغيّر (كما يحاول أن يوحي)، بعد أكثر من عشرين عاماً قضاها في منفاه الاسباني من فئة العشر نجوم، لم يضعها في التقلب بين مناعم ومغانم الثروة فقط (كما يحاول أن يوحي أيضاً)، بل انشغل فيهم بتعلّم مبادئ الثورة الفرنسية، بدلاً من المنطلقات النظرية للتجربة الكورية الشمالية، وتمثّل تجربة روبسبير بدلاً من تجربة كيم إيل سونغ، وقراءة كتب جان جاك روسو وفولتير، بدلاً من قراءة مغامرات طرزان وماوكلي، ومشاهدة أفلام (تمرد على السفينة بونتي، وZ، وJ.F.K)، بدلاً من أفلام (العراب، ورامبو، والرجل الوطواط)، ومتابعة جولات المعارك الانتخابية حول صناديق الاقتراع، بدلاً من جولات

مباريات المصارعة الحرّة، ولكن تغيّر قائد سرايا الدفاع السابق لاينبغي من وجهة نظره، أن يقابل بجحود تجاهل تاريخه المشوّق السابق، وتحويله إلى مجرد خبر تلفزيوني، يمكن لأي أفّاق أن ينافسه على مكان الخبر وشكله ومدته في النشرة.

فكل مابث تلفزيونياً من أخبار وتقارير وصور، عن نية قائد سرايا الدفاع السابق العودة إلى سورية بـ(لوك) جديد، حاول فيه ما أمكنه الابتعاد عن صورته القديمة، كضابط الارتباط الأساسي لفترات طويلة في سورية بين الدنيا والآخرة، وآمر المركز الحدودي، الذي يسهّل انتقال البشر بدون أية تعقيدات روتينية، من سطح الأرض إلى باطنها، وكل مابذله قائد سرايا الدفاع السابق من جهود لتقديم نفسه عبر الصورة التلفزيونية، كمؤمن خاشع بلباس الاحرام أمام الكعبة مرة، ورجل دولة يوزع الابتسامات الدبلوماسية مع زعماء عرب مرة أخرى، وعبر خطاب ديمقراطي صوتي مرافق للصورة، يظهره مناضلاً لاقامة مجتمع العدل والحرية والسلام، معتبراً بأن أمواله هي ملك للشعب السوري، كل ذلك بدا غير مقنع للمشاهدين السوريين، الذي يتوجه إليهم قائد سرايا الدفاع السابق عبر (لوك)ه وخطابه الجديدين، فملابس الاحرام البيضاء التي يرتديها، لاتذكر السوريين إلاّ بأكفان موتاهم، وابتساماته الدبلوماسية، لاتذكرهم إلاّ ببيت المتنبي (إذا رأيت نيوب الليث بارزة/فلا تظنن أن الليث يبتسم)، وكلامه عن مجتمع العدل والحرية والسلام الذي يتحدث عنه، لايذكرهم إلاّ بالعدالة الكاملة في توزيع الموت، والحرية التامة في اختيار طريقة الموت، والسلام الشامل الذي يشعر به الميت، لكن الكلام الوحيد والمفيد الذي يمكن أن يصدقه السوريون فعلاً، من خطاب قائد سرايا الدفاع السابق،

هو قوله بأن أمواله هي ملك للشعب السوري، لأنهم متأكدون من يده التي امتدت إلى جيوبهم وأفواههم وخزائنهم وبيوتهم.

وإذا كان رفعت الأسد قد سأم من هدوء ورغد العيش في الأجواء الرومانسية، لمنفاه الاسباني في ماربيا، وقرر العودة لعالم (الأكشن) الذي كان أحد أهم نجومه، فأظن أن اختياره لدولة في أمريكا اللاتينية سيكون أكثر إقناعاً من عودته لسورية لعدة أسباب، منها أن أي شعب في أمريكا اللاتينية، لاتوجد لديه ذاكرة سابقة مشتركة مع قائد سرايا الدفاع السابق، ومنها أيضاً أن لتلك الشعوب تجارب في وصول أشخاص، من أصول عربية ككارلوس منعم وغيره لسدة الرئاسة فيها، ومنها أنها بلاد لايزال (الأكشن) فيها مستمراً بين الحكومات ومافيات المخدرات، ومنها أنه لا تزال في تلك البلاد ثروات لم تنهب، ونساء لم تسب، وهذه الأسباب جميعاً تجعل حظوظ نجاح قائد سرايا الدفاع السابق في دول أمريكا اللاتينية، أكبر بما لايقاس من فرص نجاحه في سورية، فإن فعل وتوجه من منفاه الاسباني غرباً، بدل توجهه شرقاً، فإن السوريين سيحفظون له بكل طيبة خاطر هذا الجميل، لأن وجوده في أمريكا اللاتينية هو أكبر خدمة للسوريين، إن كان هدفه خدمتهم حقاً.

وربما من المفيد أن يعرف قائد سرايا الدفاع السابق، في (لوك)ه التلفزيوني الجديد أن مشكلته، هي نفس مشكلة أغلب النجمات العربيات، اللواتي بلغن الستين من العمر، ولازلن مصرات على أداء دور طالبات الجامعة في الأفلام والمسلسلات، ظانات أن الماكيير والكوافير ومصمم الأزياء ومدير الاضاءة بفلاتره، ومصور الكاميرا بعداسته، يستطيعون إلغاء ذاكرة المشاهد الطويلة معهن، ومتجاهلات أن عدسة الكاميرا هي لوح من

الزجاج يفضح ماخلفه، وليست قصائد مدح لشاعر متسول!

جريدة «النهار» اللبنانية، 27/ 5/ 2005

مؤتمرات صحفية لإخفاء المعلومة لا لإعلانها:
السحب الكبير ليانصيب مؤتمر البعث

لا يجتمع هذا العدد الكبير من كاميرات المحطات التلفزيونية، الموجودة الآن في دمشق لتغطية مؤتمر حزب البعث، إلاّ في حالتين: فرح غامر أو مصيبة كارثية، فالإعلام (للأسف) مثل الذباب لايتجمع بهذه الكثافة إلاّ فوق طبق حلوى مكشوف، أو على جثة ميت، وعلى المؤتمر أن يقرر بنفسه اختيار واحد من هذين الوضعين(!!) وبانتظار أن يصل المؤتمر إلى تحديد خياره، يعيش الإعلاميون المتابعون للمؤتمر حيرة الصانع الذي أضاع ليرة أعطاها له معلمه ليجلب له طعاماً، حين يستمعون إلى إجابات الناطقة باسم المؤتمر د.بثينة شعبان على أسئلتهم، التي تأتي غالباً على طريقة برنامج المسابقات (من غير كلام): قرّبت وبعدت، وتعتمد في إدارتها للمؤتمرات الصحفية أسلوب بناء شبكات الكلمات المتقاطعة، وتزداد حيرة هؤلاء الإعلاميين حين يلجؤون بحثاً عن معلومة أو تحليل، إلى محللي سورية السياسيين فيكتشفون أنهم يقرؤون الحدث السياسي بأسلوب قراءة الفنجان: أمامك طريقان، وهناك رزقة ستأتيك بعد ثلاث إشارات، وبحسب تجارب هؤلاء الاعلاميين السابقة مع تلفزيون سورية، يجدون أنه من المفيد لعملهم سماع إذاعة الكونغو المحلية على مشاهدة التلفزيون السوري، لمعرفة خبر عن سورية أقل أهمية من أخبار المؤتمر.

ففي بلاد تعتبر المعلومة خطّاً أحمر، وتعقد المؤتمرات الصحفية لاخفائها لا لإعلانها، وتعتبر الإعلام فضيحة ينبغي سترها، ربما كان على الصحفيين الذين تحولوا إلى متسولين يقفون على باب مركز المؤتمر الصحفي للمؤتمر

البعثي، مادين أيديهم للداخل والخارج، وهم ينادون: كلمة لله، حسنة للصحفي المسكين، ربما كان على هؤلاء الصحفيين أن يلجؤوا لمصدر معلومات موازٍ، لاتهتم به الكاميرات ولاتسجل صوته الميكرفونات، ويبث على الهواء مباشرة، على مدار الأربع والعشرين ساعة، ويملك كل الأسرار ويسرّب كل المعلومات، ولديه فيض من التوقعات، هو الإعلام الشفوي الشعبي، الذي يقرأ المكتوب من عنوانه كما يقال، ويعرف عن المؤتمر ما لايعرفه حاضروه، ويعيش مع المؤتمر كما تعيش الحامل مع الطفل في بطنها.

فلو كان ابن بطوطة حياً وقام بزيارة سورية في هذه الأيام، التي يعيش مواطنوها مرحلة انعقاد المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث، لكان سطر كتاباً عن وقائع رحلته سمّاه ''رحلة إلى بلاد المؤتمر''، لأنه سيظن أن المؤتمر هو الاسم الحقيقي لسورية، لكثرة ماسيسمع كلمة المؤتمر من أفواه مواطنيها في هذه الأيام ، فالسوري يبادر زوجته بالسؤال عندما يفتح عينيه في الصباح، حتى قبل أن يقول لها صباح الخير: كم يوماً تبقى على نهاية المؤتمر؟ وعندما يلتقي صديقان لم يتقابلا منذ عقد أو عقدين أول مايسألان بعضهما عنه، ليس أحوال الصحة أو العمل أو الأسرة، انما ماهي آخر أخبار المؤتمر؟ ولو طلب طفل من أبيه دفتراً أو قلماً، أو احتاج مساعدته في حلّ معادلة رياضية، سينهره الأب قائلاً: بعد المؤتمر.

فقد أصبحت كلمة (بعد المؤتمر) هي اللازمة السارية على ألسنة الشعب السوري بكامله، فلو طلبت من أحد أن يسدد المبلغ الذي استدانه منك، سيؤجلك لبعد المؤتمر، ولو سألت بائعاً عن بضاعة مفقودة ومتى ستتوفر؟ سيجيبك: بعد المؤتمر، وغدت الزوجة تؤجل غسل الملابس وجلي

الصحون، فهي تعرف مسبقاً ردّ زوجها لو طلبت منه أن يحضر لها مسحوقاً للغسيل أو سائلاً للجلي، لأنه سيؤجلها حتماً إلى مابعد المؤتمر، وأصبح بإمكان كلمة (المؤتمر) أن تحل محل قرص الـ(بندول)، وتفعل مفعول حبة (فياغرا)، وتأخذ مكان القرص المنقذ من الجلطة القلبية تحت اللسان، فضلاَ عن مهمتها الأساسية كمهدئ فعّال لأمراض مزمنة مثل سرطان الدخل الشهري، وروماتيزم حرية الصحافة، وآيدز الاعتقال السياسي، وديسك الرأي الآخر!

وبسبب هذا الترقب الشامل لنتائج المؤتمر استبدل كثير من السوريين ساعات أيديهم بأخرى تحتوي على روزنامات لأيام الشهر، وصار من الطبيعي أن تجد العديد منهم يعلقون في صدورهم مؤقتات تحسب الوقت بأجزاء الثانية، مثل تلك التي يستخدمها مدربوا الألعاب الرياضية، ولأن كثيرين من خطباء المساجد، غير متبحرين في علوم الفقه الحزبي اللازم للاشادة بالمؤتمر في خطبهم، فقد استعاروا أوصاف الجنة في القرآن الكريم والسنة النبوية، لبناء صورته في عقول مريديهم، وصار المؤتمر يتنزّل للبعض كرؤيا أو كإلهام في المنام، فيطمئن هؤلاء لارتفاع حظوتهم إلى منزلة من شاهد ليلة القدر، فتتقاطر الوفود للحصول على بركاته، وسماع تفصيل التفصيل في رؤيا المؤتمر التي خُصّ بها، وظهر كثير من المحللين الجيوسياسيين الذين بدؤوا يقسمون تاريخ سورية إلى مرحلتين: ماقبل المؤتمر ومابعده، واستبدل الموسم بالنسبة للفلاح، والراتب بالنسبة للموظف، والتحويل بالنسبة للتاجر، بكلمة واحدة هي: المؤتمر!

وحتى لا يظن بعض الذين يتابعون الاهتمام غير العادي للمواطن السوري بالمؤتمر، بأن هذه اللهفة للمؤتمر، تعود إلى كون السوريين شخصيات بدائية

الأداء تنتمي إلى عصر السينما الصامتة، أو مجموعة من الأبطال الايجابيين الذين خرجوا لتوهم من صفحات رواية تنتمي لأدب الواقعية الاشتراكية، يفطرون (وحدة) بالزيت الحار، ويتغدون (حرية) بالكاري، ويتعشون (اشتراكية) قليلة الدسم، ويتزوجون بمهر مقدمه (أمة عربية واحدة)، ومؤخره (ذات رسالة خالدة)، وهدفهم الوحيد من الزواج تمتين الوحدة الوطنية، ويمضون شهور عسلهم في التمتع بالبرامج السياحية لأحزاب الجبهة الوطنية التقدمية، ويطربون لسماع تصريحات وزير الخارجية السوري فاروق الشرع أكثر من طربهم لآهات السيدة أم كلثوم، ويقرأ عشاقهم لحبيباتهم في خلوات غرامهم افتتاحيات إلياس مراد رئيس تحرير جريدة البعث بدلاً أشعار نزار قباني، وتضع أمهاتهم تحت مخدات أطفالهن رواية علي عقلة عرسان (صخرة الجولان)، بدلاً من كراس (الحصن الحصين) ليدرؤوا عن لياليهم شر الكوابيس، ويحلمون أحلاماً سعيدة..

فالسوريون على عكس تلك الصورة الحزبية الجهمة العبوسة، التي تقدمهم كما لو كانوا يعيشون في حالة حداد دائم داخل سرادق عزاء، فهم بشر سكوب بالألوان الطبيعية وبالصوت الدولبي المجسم، فسائق التكسي السوري لايهمه من الوحدة العربية إلاّ محفظة السائح العربي، الذي يقتنصه من أحد شوارع المدن السورية، والمواطن السوري يعرف بأن الحرية أشمل من نموذجها المحلي المتاح، الذي يعرفها بأنها النوم على يد زوجته بدلاً من النوم على أيدي المخابرات، ويفضّل السوري أن يُبح صوت ابنه في المناداة على بسطة أمشاط شعر في سوق الحميدية، على أن يبح صوته في ترديد الشعارات في معسكر طلائع البعث، ولم تستطع كل حملات الاعلام السوري حول الصحافة الملتزمة والحرية المسؤولة والإعلام الهادف

والخطاب الموجّه، أن تغيّر في المرأة السورية، فهي لازالت تصر على زوجها ليحضر لها مجلة الشبكة اللبنانية وجريدة الثورة السورية، وعندما يحضرهما، تفتح الأولى لقراءتها، وتفتح الثانية لتمسح زجاج نوافذ بيتها بها.

لهذا فاهتمام السوريين بالمؤتمر يشبه كثيراً من يقرأ القرآن أو يرتل الانجيل، لا بقصد تأمل معانيهما، ولا بهدف استخلاص العبر، ولا رغبةً في تطبيق تعاليمهما، ولا بإيمان التقرب إلى الله، وإنما لهدف واحد ووحيد هو دخول الجنة، فالبعثيون الذين ذهبوا إلى المؤتمر يرون فيه مصباح علاء الدين، والذي بمجرد لمسه سيخرج منه مارد شبيك لبيك، الذي سيجعل من دعوات أمهاتهم لهم، بأن يتحول التراب الذي يمسكونه بأيديهم إلى ذهب أمراً واقعياً وبأكثر الطرق مشروعيةً، واهتمام أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية بالمؤتمر، هدفه البرهنة بالدليل القاطع بأن المثل الشعبي القائل (القرعة تتباهى بشعر جارتها) هو مثل واقعي، والمعارضة ترى في المؤتمر مناسبة واقعية لتطبيق القاعدة العلمية، التي تقول بأن العضو يضمر إذا لم يستعمل، ولذلك تجد المؤتمر فرصة لإعادة استخدام المخيلة في انتاج الأحلام والآمال، والمواطنون ينظرون للمؤتمر من منطق أنه (إذا كان جارك بخير فأنت بخير)، وهذا المنطق يصبح أكثر واقعيةً حين يكون البعث مساكناً لا جاراً!

ولذلك فالسوريون ينتظرون اليوم نتائج المؤتمر، باللهفة التي ينتظرون بها عادة نتائج حفلة السحب السنوي الكبير على جوائز يانصيب معرض دمشق الدولي (باعتبارها البرنامج الوحيد المشاهد في التلفزيون السوري)، مع فارق وحيد يكمن في أنهم يعرفون مسبقاً نتائج السحب التي سيسفر عنها المؤتمر، فهم يعلمون أن البعثيين سيفوزون بالجوائز الكبرى، بينما

ستفوز أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية بجوائز الترضية، وستفوز المعارضة بحلم الفوز بجائزة، وتفوز باقي فئات الشعب بمشاهدة الحفل الفني المرافق لسحب المؤتمر، وبهذا يكون كل السوريين قد خرجوا من المؤتمر فائزين.

جريدة «القدس العربي»، 9/ 6/ 2005

آخر انجازات العقل الإعلامي السوري:
كوكتيل إرهاب بالسطو المسلح بالنكهة العراقية

مشكلة التلفزيون السوري في تعامله الاذاعي مع الحادث الأمني، الذي وقع مؤخراً على جبل قاسيون في دمشق ، لها سبب من اثنين، فإما أن التلفزيون يعتقد أنه جهاز إعلامي مشهود له بالمصداقية، وعلى هذا الأساس كلامه ثقة لدى جمهوره السوري، ولايحتاج لأن يعذب نفسه وكوادره بإرسال فريق تصوير، لتسجيل مشاهد من أرض الحدث، التي لاتبعد أكثر من كيلومترين عن مبنى التلفزيون، وإما أنه يظن بأن السوريين مجموعة من مكفوفي البصر، لايهمهم ماإذا كان الخبر مرفقاً بصورة أم مجرد خبر صوتي!

لا أعرف موقف التلفزيون السوري بالضبط، ولكن لو كانت لي دالة عليه لنصحت إدارته باختيار السبب الثاني، فأن تكون نظرة التلفزيون للسوريين على أنهم مجموعة من مكفوفي البصر، أقرب للمنطق وأكثر مصداقية من نظرته لنفسه، على أنه جهاز إعلامي ثقة لدى جمهوره!

في كل الأحوال ومهما كان السبب، فإن التلفزيون السوري بإدارته الجديدة التطويرية التي جيء بها على أساس أنها ستشد المشاهد السوري من أذنه، وتجلسه صاغراً أمام جهاز التلفزيون، ليشاهد الشاشة الوطنية، أخفقت في أبسط امتحان لها، حين قررت أن الصورة المرافقة لخبر حول معركة بالرصاص داخل دمشق، ليست بأهمية زيارة لرئيس بلدية يقوم بجولة اطلاعية على مدجنة، ويرسل له التلفزيون الكاميرات، وتجرى مقابلات معه، ومع كل من يتواجد في المكان بما فيهم الدجاج والصيصان، وفضّلت

هذه الادارة الاستعاضة عن الصورة بإمكانيات مذيعي التلفزيون الصوتية، وتنقلهم بين كل طبقات الصوت من المينور إلى السوبرانو، بحيث أن كل من شاهد نشرات الأخبار السورية هذه الفترة، لفته الأداء المبالغ فيه لمذيعها، وتحديداً وهم يقرؤون خبر معركة جبل قاسيون بين المسلحين ورجال الأمن، وظن هذا المشاهد للوهلة الأولى أنه يشاهد متقدماً لبرنامج «سوبر ستار»، يجرّب صوته قبل الدخول لمقابلة لجنة اختيار المتسابقين، وليس مذيعاً في نشرة أخبار.

ستجد إدارة التلفزيون بلا شك مبررات كثيرة، لإضفاء شرعية ما على إخفاقها الحالي، وربما ستبلغ الوقاحة بمسؤول تلفزيوني، حد الظهور على الشاشة بصدر منفوخ، ووجه باسم، ويدين تتحركان يميناً وشمالاً، ليعتبر أن مثل هذا التقصير فتح ابتكاري في عالم التقديم التلفزيوني، باعتبار أن التلفزيون في بحثه عن الابتكار والتطوير، وفي محاولته للمزاوجة بين التراث والمعاصرة، قرر الاستفادة من ظاهرة الحكواتي الشعبي، الذي كان يروي قصص عنترة والزير سالم وسيف بن ذي يزن، على رواد المقاهي قبل اختراع التلفزيون، ويؤدي هذه القصص بطريقة تنشط خيال مستمعيه، وتحمسهم وتجعلهم مشاركين في الحدث لامجرد متلقين له، ولهذا رأى التلفزيون مزاوجة ظاهرة الحكواتي المسرحية التراثية، بمهنة المذيع التلفزيوني المعاصرة، بهدف الوصول إلى اختراع تلفزيوني سوري فريد، اسمه مذيع يقدم خبراً سياسياً بتعبيرات مسرحية، وستعقد بعدها سلسلة من الندوات التلفزيونية على الشاشة السورية، لتحلل وتناقش وتقيّم هذا الفتح الإعلامي السوري غير المسبوق، الذي يهدف لترك خيال المشاهد حرّاً، كي يستطيع أن يركب وقائع معركة جبل قاسيون في رأسه، بالطريقة التي كان يركب بها خيال

مستمع الحكواتي في المقاهي مغامرات عنتره بن شداد، ولايفرض عليه صورة تمنع عنه فرصة التخيّل والتفكير!

أنا لا أستغرب حدوث ذلك، فالعقل الإعلامي السوري يتجاوز كل خيال، ليس في قدرته على الابتكار، وإنما في قدرته على التبرير، ولكن في حال تمكّن التلفزيون السوري من تبرير استعاضته عن المشهد البصري بالمسمع الاذاعي، كيف سيتمكن من تبرير وقائع معركة جبل قاسيون التي نقلت بعدة روايات، كما لو أنها سيناريوهات افتراضية لحادث سيحدث، لاباعتبارها واقعة حدثت، أو كما لو أنها حادثة جرت قبل أكثر من ألف عام، إلى الدرجة التي أشعرتني أنني أعيش في المدينة المنورة وأسمع روايات متضاربة عن واقعة الجمل، لا في دمشق عام 2005، في زمن لو دهست فيه نملة في جبال تورا بورا بأفغانستان، لنقلت ثلاث محطات تلفزيونية على الأقل خبر الدهس، ملحقةً إياه بسلسلة بيانات وتصريحات لمنظمات حقوقية تدين وتشجب وتندد! وكيف سيبرر المسؤول الإعلامي السوري عدة متناقضات، وردت في الأخبار المتتالية التي نشرت عن معركة جبل قاسيون، فأول خبر عن الحادثة تحدث عن (وقوع عشرات الاصابات في جبل قاسيون، حيث تكون هذه المنطقة مكتظة بالناس)، بينما كان الخبر الثاني الذي يحمل إعلاناً لمصدر رسمي في وزارة الاعلام السورية، يؤكد بأنه (كان لحرص القوى الأمنية على حياة المواطنين المتواجدين في المنطقة أكبر الأثر في حصر الاصابات بالمطلوبين وبرجال الأمن، ولم يصب أو يتأذى أي من الاخوة المواطنين في موقع الحادث)، في حين جاء في شهادة العناصر الأمنية الذين شاركوا في العملية، بأن (أفراد المجموعة قاموا بإطلاق النار على عناصر الدورية الأمنية وعلى المتنزهين في هذه المنطقة

بشكل عشوائي)، فهل يستطيع المسؤول الاعلامي أن يروي لنا القصة الحقيقية لما حدث من إطلاق نار في جبل قاسيون من بين هذه الأخبار الثلاثة، ومالإذا كان قد أصيب مواطنون أم لم يصبوا؟ وكيف لفت ودارت هذه الرصاصات التي أطلقت بشكل عشوائي، حول أجساد المواطنين الذين يتواجدون فعلاً بكثافة في هذه المنطقة كي لاتصيبهم، ولتحصر اصاباتها برجال الأمن فقط؟ وهل كانت المجموعة المسلحة تستخدم نوعاً من الرصاص «الذكي» الذي يعرف رجال الأمن من بين كل الناس، ويتوجه إليهم حصراًً!؟!

ثم كيف سيبرر المسؤول الإعلامي السوري تناقضاً واضحاً، في توصيفه للمجموعة المسلحة باعتبارها (مجموعة مطلوبين بجرائم ارهابية وسطو مسلح)، كما لو أنه يتحدث عن «اللبن الأسود» أو «الخطان المتوازيان المتقاطعان»، فمن المعروف أن أية مجموعة ارهابية تعتمد على تمويل غير محدود وسرّي، وهي ليست بحاجة لأن تقوم بعمليات سطو مسلح تشلّح فيها مواطناً محفظته، أو تقتحم منزلاً لتسطو على خزانة مواطنة للحصول على أساورها وأقراطها الذهبية، لتموّل عملياتها الارهابية؟ وأخيراً كيف خطر للمسؤول الاعلامي السوري وهو يصنع خلطة المجموعة الارهابية والسطو المسلح على طريقة بائعي كوكتيل الفواكه، أن يضيف إليها اسم صدام حسين وفدائييه، باكتشافه أن أحد أفراد المجموعة المسلحة كان من مرافقي الرئيس العراقي المخلوع، وأن المجموعة كانت تعتزم تنفيذ عمليات عسكرية في العراق؟ هل مثلاً مد يده إلى الخلاط الذي مزج فيه كوكتيل الارهاب بالسطو المسلح، ولحسه برأس سبابته فوجد أن كوكتيله ينقصه حليب أو قليل السكر، أو يمكن تطعيمه ببعض المنكهات، فأضاف إليه

اسم صدام حسين والعراق من قبيل الكرم والسخاء على كوكتيله؟ وألم يسأل نفسه كيف يمكن لرئيس من نوع صدام حسين لايثق بأشخاص ينتمون إلى أبعد من حدود محافظته (تكريت)، أن يوظف في عداد حرسه الخاص أردنياً!؟!

كان يمكن لهذه الأسئلة أن تبقى مجال تندر للسوريين في سهراتهم، لولم يتراجع المسؤول الاعلامي السوري عن خلطته العجيبة، بالطريقة السهلة والسريعة التي صنعها بها، فتم التنازل عن تهمة الارهاب، واستبعد اسم صدام حسين وفدائييه، وعمد المسؤول الإعلامي السوري إلى تطبيق المثل القائل (عذر أقبح من ذنب) بأفضل صورة ممكنة له، فألقى اللوم على زوجة أحد أفراد المجموعة المسلحة، باعتبار أن تصريحاته السابقة كانت بناء على إفادتها (لكن وبعد التدقيق في كلامها بدا أنها لم تكن متزنه)!

من بين كل الأخبار المتناقضة التي سمعتها وقرأتها، عما جرى في جبل قاسيون فجر 4/ 7/ 2005، أكثر ماأثار دهشتي واستغرابي هي تصريحات المسؤول الاعلامي السوري بوصفه للآخرين بعدم الاتزان!!

جريدة «القدس العربي»، 8/ 7/ 2005

وقائع تحقيق تلفزيوني:
اعترفات مشاهد سوري في ظل حكم التلفزيون الواحد!!

– أنت حاقد على الاعلام والتلفزيون السوري؟

• هذه تهمة عامة، ولو كانت هناك مادة في القانون تجرّم الحقد على التلفزيون، فيمكن أن يقع تحت طائلتها ثمانية عشر مليون سوري!!

– وما سبب هذا الحقد الأعمى؟

• إسألوا التلفزيون... فأنا أظن أنه عند وقوع جريمة، عادة مايحقق مع المجرم وليس مع الضحية!!

– أنت تتهم التلفزيون السوري بارتكاب جريمة إذاً، ما هي؟

• الشروع في تشويه الجنس البشري بمحاولة تحويل المشاهد السوري إلى منغولي، فكل برامج التلفزيون تعتمد في خطابها مع مشاهدها على الآية القرآنية الكريمة (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشياهم فهم لا يبصرون)!

– وهل نجح التلفزيون السوري في ذلك؟

• توصل حتى الآن إلى حد إعاقة مشاهديه وتحويلهم إلى قبيلة من قبائل الهنود الحمر التي تعيش خارج العصر!

– وما السبب في عدم نجاحه برأيك؟

• ظهور المحطات الفضائية التي فعلت بالمشاهد السوري ما تفعله أنت بجهاز موبايلك، حين تضغط على خيار استعادة ضبط المصنع فيه!

– هل أفهم من كلامك أن السوريين لم يعودوا يشاهدون تلفزيونهم بعد ظهور المحطات الفضائية؟

• لكل استعمالاته، فاختراع الطائرة لم يلغ استخدام الحمير كوسيلة نقل، فأنا مثلاً أستعمل التلفزيون السوري بدل (الفاليوم) في حالة الأرق، والبعض يستعلمونه للرد على نكد زوجاتهم على طريقة (وداوها بالتي كانت هي الداء)، وآخرون يستخدمونه كوسيلة عقاب وتخويف لأطفالهم، بدلاً من (أمنا الغولة) التي أصبحت أقل رعباً للأطفال بالمقارنة مع التلفزيون السوري!

– أنت سوداوي، فهل من المعقول أنه لايوجد برنامج جيد في التلفزيون؟

• أنا لم أقل أنه لايوجد.. فالتلفزيون السوري يقدم برنامجاً ناجحاً ومسلياً جداً، يبدأ من مابعد نهاية البث، ويستمر إلى ماقبل بداية الارسال!

– وما بين بداية ونهاية إرساله ألا يقدم أية برامج جيدة؟

• ربما بالنسبة لذوي الاحتياجات الخاصة، فبرامجه مكررة مثل ال(جزا) الذي يفرض على تلميذ مدرسة في دروس الاملاء، بإعادة كتابة جملة عشر مرات!

– هل تريد أن تقول بأن التلفزيون السوري غير مشاهد؟

• لا.. ولكنه مخصص للاستعمال لمرّة واحدة فقط، مثله مثل المناديل الورقية أو نكاشات الأسنان!

ـــ هل تقصد أن المشاهد لايعود لمشاهدة برامج التلفزيون السوري مرة ثانية فيما لو شاهده أول مرّة؟

• بالضبط فهو بقوة لقاح الجدري، يؤخذ مرة واحدة لكن مفعوله يستمر إلى نهاية العمر!

– ما دام هذا رأيك فيه، فماهي الفائدة من وجوده إذاً؟ هل تقترح إلغاءه؟

• معاذ الله، هذه جريمة! هل تريد للمشاهد السوري أن يعيش بدون

انتصارات!

– إذاً هل يمكن تطويره؟

• أتمنى، ولكن ذلك مرهون بإثبات نظرية داروين في النشوء والارتقاء، وبأن القرد تطور إلى إنسان، وحتى تثبت صحة هذه النظرية، يمكن معاملته معاملة علب التبغ، بوضع تحذير طبي على برامجه، تحذّر من مخاطرها للحد من تعاطيها!

– متى شاهدت التلفزيون السوري آخر مرّة؟

• لا أذكر، لأنني في كل مرة أشاهده فيها يظهر لي على الشاشة فتى التلفزيون الأول نضال زغبور، وهو يتحدث عن اللحظة الحرجة التي تمر بها أمتنا العربية، والهجمة الشرسة التي يتعرض لها شعبنا، ووحدة المسارين، والمنظومة الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي الصديق، والعدو الصهيوني الغاصب، فتتداخل التواريخ في ذهني، وأشعر أنني في حصة التربية القومية الاشتراكية، في مدرستي الثانوية!

– هذا يعني أن التلفزيون السوري يعلّم التربية القومية الاشتراكية؟

• ومن قال غير ذلك! لكنه يعلمها بنفس الطريقة التي تقرب فيها من فم طفلك الصغير ملعقة دواء السعال!

– لا تنكر أن هناك تطوراً حدث في التلفزيون، فالأخبار صارت أكثر شفافية!

• بالنسبة لي كمشاهد مبدأ الشفافية في أخبار التلفزيون لم يطبق إلاّ على أزياء المذيعات!

– كيف والتلفزيون نقل على الهواء مباشرة ندوات الدكتورة بثينة شعبان الصحفية في مؤتمر البعث الأخير؟

• عن جد! أشكرك لأنك صححت لي معلومة خاطئة في ذهني، فقد كنت حتى هذه اللحظة، أظن أن ماشاهدته فقرة من فترة البرامج التعليمية المخصصة للطلاب!

– ونقل أخباراً عن العمليات الارهابية داخل سورية؟

• بالله عليك!! طيب لماذا كان لدي إحساس بأن ماشاهدته عرضاً لمجموعة ألعاب (بلي ستيشن)، نزلت حديثاً إلى الأسواق!

– وأصدر تصريحات حول أزمة الشاحنات على الحدود مع لبنان؟

• أنت تمزح بالتأكيد، فقد ظننت أني أشاهد برنامجاً عن الأمثال الشعبية، يقدم فيه تدريب عملي على (الاختفاء خلف الاصبع)!

– ما دام لا يعجبك العجب، ما هي الحلول المتاحة برأيك لمشكلة التلفزيون السوري؟

• هناك عدة حلول، لكن حسب ما تقوله الاعلانات التلفزيونية فإن (البيف باف) هو الأسرع!

– ألم أقل لك أنك موتور وحاقد، هل يوجد كثيرون لهم نفس آرائك؟

• كل الذين عاشوا حياتهم، وقضوا ثلاثة أرباع أعمارهم في ظل حكم التلفزيون الواحد، لديهم مثل هذا الرأي!

– وما الذي فعله بكم هذا التلفزيون الواحد ليصل حقدكم إلى هذه الدرجة؟

• فعل الكثير، فلطالما أشعر مشاهده السوري بأنه يعيش مكسور الخاطر مثل اليتيم الذي يسكن عند خالته زوجة أبيه، يحكمه شعور مذل بأنه شخص زائد عن الحاجه، كل مايقدم له منّه، فعيشته مكرمة، ولقمته عطاء، وغفوته فضل، وعمل في كل برامجه وأغانيه وأخباره على تغذية

عقدة النقص والشعور بالذنب لديه، وتذكيره كل يوم بأن حقوقه أقل من حقوق لقيط عثر عليه فجراً في حاوية قمامة، ولاتزيد عن الحمد والشكر والطاعة، وللانصاف لم يترك التلفزيون السوري فرصةً يستطيع تمنين مواطنه بها إلاّ واغتنمها، فإن تم تزفيت شارع، أو نزلت إلى الأسواق علبة مناديل ورقية بعد طول انقطاع، أو سمح باستيراد قرط من الموز، أو أوقف نشّال يظهر المذيع على الشاشة بسلاح الميدان التلفزيوني الكامل، ليقول بانتصار من يقرأ البيان رقم واحد، لمشاهده المغلوب على أمره مامختصره: شوف، ماالذي كان سيحل بك لولانا!!

صورة طبق الأصل

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 14/ 7/ 2005

هل حسّنت إقالة يحيى العريضي من سمعة سورية؟

لا أعرف كيف يمكن للدكتور يحيى العريضي أن يبرر، لو أتيحت له فرصة الظهورعلى التلفزيون، وسئل عن سبب اقالته من إدارة المركز الاعلامي السوري في لندن، واحضاره موجوداً إلى سورية، وانهاء ندبه من وزارة الاعلام، وإعادته إلى عمله في جامعة دمشق، بالطريقة المهينة التي انتهت بها مهمتة الدونكيشوتية في تحسين صورة سورية في الخارج، ولكني لا أشك في أنه سيجد الأعذار المقنعة من وجهة نظره، لمواصلة دفاعه عن الاصلاح على الطريقة السورية، والاشادة بحكمة القرار الذي أنهى مهمته، ورجاحة عقل من أصدره، ولن ينسى بالطبع توجيه الشكر له!

لا أضرب في المندل ولا أفتح الفال حين أخمّن ردة فعل الدكتور العريضي على ما حدث معه، فالرجل بدأ حياته الاعلامية مديراً للقناة الثانية في التلفزيون السوري، وماميّزه على شاشتها صوته الهامس الذي يحتاج لمشاهدٍ مزودٍ بجهاز لتقوية السمع، أو لمشاهدة عاشقة لفهم مايوشوش به ضيفه، ولولا الترجمة العربية التي كانت تظهر على الشاشة، ماكان يمكن فهم السؤال العبقري الذي يوجهه لكل ضيوفه، عن رأيهم في المواقف القومية والمبدئية والثابته للسياسة السورية، وهذا السؤال –الذي لايحتمل في المكان الذي يوجد فيه الضيف إلاّ جواباً واحداً– يعتبر الماركة المسجلة للتلفزيون السوري بقنواته الثلاث، والفارق الوحيد بينها هو توصيف القناة الأولى باعتبارها القناة الاجبارية الرصينة، لمواقف السياسة السورية بالقومية والمبدئية والثابته، في حين توصفها القناة الثانية بالثابتة والمبدئية والقومية، لأنها توجه للمشاهد الانكليزي الذي يقرأ من اليسار لليمين، أما القناة

الفضائية فتفضل بداعي الاختلاف والانفتاح، كونها موجهة للمشاهد الخارجي توصيفها بالمبدئية والقومية والثابته، وبفضل هذا السؤال يمكن لأي مشاهد العثور على القناة السورية، لأن طرحه على كل الضيوف يبدأ من مابعد تلاوة القرآن الكريم التي يفتتح بها البث، وحتى ماقبل ظهور النشيد السوري الذي يعلن ختام الارسال، وطوال فترة البث يسمع المشاهد هذا السؤال، يطرح على المحلل السياسي وخبير الجولوجيا وبائع البطيخ والحلاق النسائي والدكتور محمد حبش، ليرددوا نفس الجواب وكأنهم تلاميذ مدرسة ابتدائية، غشوا في امتحان من نفس الورقة!

وقد نقل الدكتور العريضي خبرته الطويلة مع هذا السؤال إلى لندن، بعد تعيينه مديراً للمكتب الاعلامي السوري، ليحسّن صورة سورية إعلامياً في الخارج، باذلاً الوعود معتمداً استراتيجية القصة المعروفة التي تقول (إما أن يموت الملك أو الحمار أو أموت أنا)، فعندما يحشر في سؤال عن الاصلاح، يتحدث عن الصبر باعتباره مفتاحاً للفرج، وعندما يحرج في مداخلة عن القمع، يتهم مواجهه بنفسه القصير، ولولا مشاهدتي لصورته على الشاشة، لظننت في كثير من المناسبات التي سمعته يتحدث فيها، بأني أشاهد الداعية عمرو خالد في برنامج تلفزيوني ديني، يبذل الوعود فيها للمؤمنين بأنهار العسل والحليب في الجنة، ووصل تماهي الدكتور العريضي بعمرو خالد إلى الحد الذي ظننت فيه بأنه سيظهر ذات يوم في برنامج تلفزيوني، ليردد للسوريين قول الرسول محمد ''اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة''، وكانت المفارقة الطريفة التي ترد على كل كلام الدكتور العريضي عن الاصلاح الموعود، وهو يملأ شاشة فضائية عربية تأتي من الشريط الاخباري الذي يمر تحت صورته، وفيها خبر عن اعتقال أجهزة

الأمن السورية للكاتب علي العبد الله، أو آخر عن منع اجتماع للجنة المؤقته لاعلان دمشق، أو إحالة المحامي هيثم المالح الرئيس السابق لجمعية حقوق الانسان في سورية إلى المحكمة العسكرية، أو الحكم على رياض دردار الناشط في لجان المجتمع المدني في سورية من قبل محكمة أمن الدولة بالسجن خمس سنوات، أو منع الندوة الشهرية لمنتدى الأتاسي، وكانت مهمة الدكتور العريضي أن يتحول إلى سيزيف جديد يحمل صخرة الاصلاح من جديد إلى أعلى الجبل، بعد أن تدحرجها له إلى الأسفل الأجهزة الأمنية بخبر اعتقال أوتضييق أمني جديد في سورية.

وكنت في كل مرة أسمع فيها الدكتور العريضي، يرد على من يسأله عن أي إصلاح يتحدث وقد اعتقل فلان، أو حكم على علان، أتذكر سؤالي له عندما عيّن مديراً للمركز الاعلامي السوري في لندن، عن هدف المركز ومهمته كمدير له، وأتذكر إجابته حول تحسين صورة سورية في الخارج، عندها قلت له: حسنوا صورة سورية لدينا هنا في سورية وستتحسن تلقائياً في الخارج، وأظن أن الدكتور العريضي يذكر بأنه وافقني حينها، وبذل لي كمية لابأس بها من الوعود الاصلاحية، التي لم أحصل على منها إلاّ على تهديدات وصلتني من عدة جهات أمنية، كان آخرها استدعائي في 13 شباط الماضي إلى مبنى الخابرات العامة بدمشق، ليقوم مدير المخابرات السورية اللواء علي مملوك بالتحقيق معي في مقالتين، نشرتهما في «القدس العربي» قبل ثمانية أشهر هما: (مؤتمرات صحفية لاخفاء المعلومة لا لإعلانها: السحب الكبير ليانصيب مؤتمر البعث) و(اعترافات مشاهد سوري في ظل حكم التلفزيون الواحد)، وإهانتي وتهديدي ومنعي من كتابة أي مقال حتى لو عن المازوت (كما قال لي بالحرف)، أو إجراء أي لقاء،

ما لم أحصل على موافقة العميد الذي قادني إلى مكتبه، وإلاّ كان مصيري السجن، وبعدها تركني للعميد/الرقيب الذي أخذ دور الملاك الحارس، وقام مشكوراً بتوضيح الفارق لي بين النقد الهدام والنقد البناء، ثم نصحني بأن لا أكتب بطريقة المسخرة، وعندما تحدثت معه عن مفهوم الكتابة الساخرة، وعن كتاب محمد الماغوط المعنون (سأخون وطني) سألني: بالله عليك كيف يكون وطنياً من يكتب كتاباً بهذا العنوان!!

لم يحدث في تاريخ سورية أن طلب من كاتب أو صحافي، أن يستشير المخابرات مباشرة فيما يكتبه، ولذلك تم إنشاء أقنعة مدنية مثل وزارة الاعلام، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد الصحفيين، ورؤساء ومدراء وأمناء تحريرالصحف، لتنوب عن المخابرات في الرقابة على الفكر والكتابة في سورية، ولكن الاصلاح الذي طالما بشر به الدكتور العريضي، هو الذي دفع المخابرات لتنزع أقنعتها المدنية، وتتدخل بوجهها القبيح، وخشيتي من تحقق إجراءات إصلاحية أشد مما واجهته من الاصلاح المأمول، الذي بشر به الدكتور العريضي، جعلني أخير نفسي بين وطن تقرر فيه المخابرات ماهو المسموح وماهو الممنوع علي كتابته، وبين أرض الله الواسعة التي لاتفرض رقابة محاكم التفتيش على كتابتي، واخترت مكرهاً أرضاً لايأخذ فيها اللواء علي مملوك وعميده، دور الملاكين الذين يجلسان على كتفي ليسجلا الحسنات والسيئات!!

فعن أي اصلاح يتحدث الدكتور العريضي، الذي تنقل خلال إدارته للمركز الاعلامي السوري في لندن، بين موقع شاهد الزور ومحامي الشيطان، ولم يختلف أداؤه الاعلامي بين سورية وخارجها، إلاّ بارتفاع درجة صوته خلال مرحلته اللندنية، والتي أرجعها لأحد سببين، فإما أن

ارتفاع صوته تناسب طرداً مع ارتفاع أجره الشهري، أو أن صوته قد ارتفع بعد خروجه من سورية، حيث لاصوت يعلو فوق صوت المعركة.. وأي معركة لنظام ضد مواطنيه!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 10/ 4/ 2006

وزارة الاعلام السورية:
حتى محمد حسنين هيكل سيتحول إلى هتّيف!

ثمة قاعدة أصبحت معروفة في الحياة السياسية في سورية، تستحق أن تدرّس مثلها مثل القوانين والنظريات المؤسسة، كقانون فيثاغورس الهندسي، ونظرية أنيشتاين النسبية، تقول القاعدة السورية – التي أصبحت بحكم القانون – انه إذا كان لديك ثأر بايت مع أي رجل، وتريد الانتقام منه وتجريصه، وانهاء مستقبله السياسي والمهني، واحالته إلى التقاعد بغض النظر عن وصوله للسن القانوني، وإذا أردت أن تعرّضه للمهاترات والبهدلة، وشد الشعر وتشريط الثياب والنميمة، فما عليك إلاّ أن تسميه وزيراً للإعلام(!!) وبتسليمه هذا المنصب الرفيع في سورية ستضمن أنك ستعثر عليه بعد أقل من سنتين، جالساً في أحد المقاهي مثل الزوج المتقاعد، الذي انتزعته زوجته من عز نومه، وقطعت عليه أحلامه السعيدة، وأجبرته على مغادرة المنزل ليتسنى لها تنظيفه، وهو يشعر أن كل من حوله ينظرون إليه نظرة العارف، بالطريقة التي رمته بها زوجته خارج البيت.

فحين يعين رجل وزيراً للإعلام في سورية عليه أن يحاول التذكر، ما إذا كان أباه في لحظة غضب رفع يديه للسماء، داعياً الله أن يغضب على ابنه ويغلق الأبواب بوجهه، أو سمع شحاذاً مرّ قربه ولم يتصدق عليه، فتضرع الشحاذ إلى الله أن لايعطيه من عطائه، وعليه أن يتساءل ما إذا كان قد قطع رحمه، أو أكل مال يتيم، أو رمى المحصنات، أو ارتكب كبيرة من الكبائر، فبغير ارتكابه لاثم من هذه الآثام، لايمكن لرجل أن يصبح وزيراً لإعلام سورية!

فهذا المنصب هو أقسى من حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة، رغم أنه لم يرد في قانون العقوبات، لأن أي محكوم عادي بالسجن سيتعرض لعشر فلقات بالدولاب، وخمس لسعات بالكهرباء، وجلستين على الكرسي الألماني، ثم يقضي بقية محكوميته مرتاحاً له حق في أوقات للتنفس، وقد يصادق سجانيه ويرشوهم، أما أن يصدر حكم في سورية على شخص بتولي وزارة الإعلام، فمعناه أن الأشغال الشاقة مستمرة على مدار ساعات اليوم الأربع والعشرين، ابتداء من قرار التعيين الذي ينص في أول بنوده على أن مهمته هي (مقسوم لاتاكل وصحيح لاتقسم)، وعليه أن يقضي محكوميته جالساً على الكرسي الألماني، يُلسع بالكهرباء، ورجليه في الفلقة، وليس لديه وقت للراحة أو للتنفس، فإن صرح بأن أمريكا هي دولة امبريالية عدوة لسورية، سيتلقى هاتفاً غامضاً يؤنبه بأن الموقف السياسي اليوم هو عدم استثارة أمريكا، وإن تحدث في ندوة عن استعداد سورية لاستقبال رئيس وزراء لبنان فؤاد السنيورة، سيسمع صوتاً خشناً على الهاتف يصرخ به: مادمت فهيماً إلى هذه الدرجة تعال اجلس مكاننا، وقرر من نستقبل ومن لانستقبل، ولو نشر مقال في صحيفة سورية تتبع له، يتحدث عن العثور على صرصار في زجاجة كازوز، ستقوم الدنيا ولاتقعد عليه باعتباره يحرض الناس على الحكومة، وحين يتجرأ صحفي سوري على الكتابة، عن ارتفاع ثمن فنجان القهوة في فندق خمس نجوم، سيتهم بأنه يساهم في وضع العقبات أمام المستثمرين، وعليه في آن واحد أن يرضي ايران ولايغضب السعودية، ويستميل فرنسا ولا يعادي أمريكا، ويبتسم للجزائر ولايعبس بوجه المغرب، ويتغدى مع الصين ويتعشى مع تايوان، ويطور الإعلام السوري من دون أن يسمح بالنقد،

ويطالب الصحفيين بالجرأة ويمنع لهم المقالات، وحتى لو كان بمهارة لاعب سيرك يمشي على الحبال بخفة ورشاقة، وفعل كل ذلك، لن يتوقف تلفونه عن الرنين اعتراضاً واستنكاراً، وتأنيباً، وتهديداً، ولو قرر في ساعة يأس ولحظة حرد أن يضع يديه على عينيه وأذنيه وفمه، مقتدياً بالتمثال الشهير للقرود الثلاثة، لن يعدم من يهمس حوله بأنه لايصلح للمنصب، الذي شرّف بتوليه، فإرضاء الحكومة غاية لاتدرك!

خلال السنوات الست «الاصلاحية» الماضية مرّ على سورية أربعة وزراء للإعلام ، كان همهم الأول البحث عن طريقة تفرق وظيفة وزير الاعلام، عن وظيفة نكاشة الأسنان أو منديل الكلينكس، كون هؤلاء الثلاثة صالحون للاستخدام لمرة واحدة فقط، فعينوا المستشارين، وأحضروا المعاونين، وطلبوا النصح من العرافين وكهنة السحر الأسود، وقرأت لهم زوجاتهم وجاراتهم مستقبلهم الوزاري كل صباح في الفنجان، وبحثوا عن أمل لاستمرارهم على كراسيهم في الأبراج الفلكية والصينية، وفتحوا الفال و«التارو» وأوراق الشدّه بحثاً أمل يبقيهم في مناصبهم، وحاول كل منهم الاستفادة من تجربة سلفه، لكنهم اكتشفوا جميعاً (باستثناء آخرهم الذي لم يمر على استلامه الوزارة إلاّ شهور قليله)، أنهم بقبولهم تسلّم منصب وزير إعلام سورية، لم يكونوا أكثر من مجازفين في لعبة روليت روسية، وكانت الطلقة الوحيدة الموجودة في المسدس – الذي تُدار طاحونته وتُوجه فوهته إلى الصدغ، ثم يُضغط على زناده – من نصيب أدمغتهم، وواحداً اثر آخر تهاووا صرعى الآلة المخابراتية التي تدير الاعلام السوري، ولم يتبق من أثرهم سوى السخرية الرسمية من أفعالهم، حين يمر ذكرهم صدفة، والنكات التي يتداولها الصحفيون عن فترتهم، وقرارات منع وإلغاء ومصادرة

(أشهرها إيقاف جريدتي الدومري والمبكي)، واستدعاءات أمنية للكتّاب بسبب مقال أو خبر، وعدة مئات من قرارات التعيين لموظفين جدد في الاعلام السوري، هي كل ما استطاعوا انجازه كوزراء.

ليست مشكلة هؤلاء الوزراء الأربعة الوحيدة (كما قد يخيّل للكثيرين)، أن ثلاثة منهم جاؤوا من السلك الدبلوماسي، ورابعهم من مكتب للسكرتاريا، أو أن أحدهم طبيب جراح، وأنهم جميعاً من خارج الجسم الإعلامي، فلو جيء بمحمد حسنين هيكل ليدير وزارة الاعلام السورية، سيتحول بعد ستة أشهر إلى مجرد هتّيف من الهتيفة الكثر في سورية، الذين يركبون على الأكتاف في المسيرات، ولن يكتسب أي خبرة من الوزارة باستثناء الدروس التي سيأخذها في رقص اللمبادا، لأن الاعلام السوري هو المدرسة الأشهر في العالم في تعليم الرقص المجنون، وأداء وزيره يكاد يكون متطابقاً مع أحد اكثر المشاهد تكراراً في أفلام الكابوي، حين تتسلى مجموعة من المسلحين بإطلاق النار تحت قدمي شخص أعزل، وعليه أن يقفز بمهارة ليتفادى إصابة رجليه بالرصاص، وإذا كانت هناك فضيلة تسجل لكل وزراء الاعلام في سورية فهي فضيلة الاعتذار، فكل واحد منهم يحطم الرقم القياسي لسلفه في عدد الاعتذارات عن تصريحات سابقة له، وأكثر الكلمات تردداً على ألسنة هؤلاء الوزراء هي أن «الكلام الذي نقل عنه فهم بشكل خاطئ»، أو أنه «لم يدل بهذا التصريح»، أو أن «سياسة الدس ضد سورية التي تعتمدها العديد من وسائل الاعلام المعادية، نقلت عن الوزير كلاماً لم يقله»!

في النهاية، لوطلب مني أن أختصر وظيفة وزير الاعلام في سورية، بعدة كلمات سأقول: (إنه الرجل الذي يتلقى المكالمات الهاتفية المؤنبة له، منذ

الثامنة صباحاً وحتى منتصف الليل، شاكراً المتصل، دون أن يكون له خيار عدم الرد عليها، أو حرية إغلاق هاتفه الجوال)!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 17/ 4/ 2006

في طريقة تحويل مراسل الفضائيات العربية السوري إلى ناطق رسمي للحكومة؟

يختلط مفهوم المراسل التلفزيوني في سورية بمفهوم الناطق الإعلامي الرسمي، فلو تابعت المراسل السوري لأية محطة تلفزيونية، لن تجد لديه مايضيفه على الخبر الذي تبثه وكالة الأنباء الرسمية السورية (سانا)، عن أي حدث سوري، إلاّ في شرح الكلمات وإعرابها، وكأنك تتابع درساً في البلاغة والنحو، ومن كثرة الفأفأة والتأتأة التي يجيب بها المراسل السوري على الأسئلة، التي يوجهها له مذيعو النشرات الاخبارية في المحطة، التي يقدم رسالته لها، يخيّل للمشاهد (الذي لايعرف الجو الانتحاري الذي يعمل به المراسل في سورية)، بأن أحد أهم الشروط التي تطلبها المحطات الفضائية العربية لتوظيف مراسليها في سورية، هو أن تكون لديهم مشكلة في النطق!

طبعاً الحقيقة غير ذلك، فالمراسل السوري الذي يقف أمام الكاميرا، ليرد على أسئلة مذيع النشرة الاخبارية لمحطته في بث مباشر، في موضوع مثل لقاء المحقق الدولي في قضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري سيرج براميرتز، بالرئيس بشار الأسد ونائبه فاروق الشرع، تمر في ذهنه مئات الأفكار والهواجس التي عليه أن يحسب حسابها، قبل أن يجيب على السؤال الذي يوجه إليه، فهو يفكر برزق زوجته وأطفاله، الذي عليه ألاّ يتنازل عنه في إجابته على السؤال، ويعمل جهده على ألاّ تتحول إجابته إلى تهمه، يقضي بعدها عدة أشهر في السجن، ويتذكر المحاضرات الأكاديمية الاعلامية التي تلقاها في فروع المخابرات، التي مرّ عليها في رحلة اعتماده كمراسل

حول النقد الهدام والنقد البناء، وفي تلك اللحظة بالذات يتذكر أن فروع المخابرات هي أبنية طابقية، بعضها فوق الأرض، وبعضها الآخر -وهو الأهم- تحت الأرض، وتمر في ذهنه تجربة زميله محمد العبد الله مراسل قناة الجزيرة الأسبق في دمشق، الذي غطى المشكلات التي حدثت بين سكان مدينة السويداء السورية، والبدو الذي يعيشون بجوارها، فكانت النتيجة أنه أصبح اليوم مراسلاً لقناة الجزيرة في دبي، ولاينسى أن زميله الآخر عمار مصارع فقد عمله كمراسل لقناة الحرة في دمشق، بعد تغطيته للاعتداء الذي تعرض له بعض المعارضين السوريين خلال اعتصامهم احتجاجاً على قانون الطوارئ، في ساحة المرجة بدمشق، ويتوجه من أعماق قلبه وبإيمان خالص إلى الله، متضرعاً أن يتعطل بث القمر الصناعي، أو تنتهي مدة الحجز بسرعة، أو يقوم أسامة بن لادن بعملية تجعل القناة تقطع بثها عنه، وتنتقل لمتابعة الحدث الجديد، ولو رأى أي مشاهد المراسل السوري لأية محطة تلفزيونية، ينفخ بشكل خفي بوجه الكاميرا، فعليه أن يكون متأكداً أن المراسل يقرأ في سرّه الآية القرآنية الكريمة (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون)، وينفخها في وجه المذيع الذي يسأله، كي يرتبك ويتشتت وتمر فترة البث المباشر بسلام، ولأن كل هذه الأفكار والهواجس تمر في عقل المراسل، وهو يجيب على السؤال يراه المشاهد يتأتئ ويفأفئ ، باحثاً عن الجواب المناسب الذي يرضي المخابرات العسكرية، والسياسية، والجوية، والخارجية، وأمن الدولة معاً وبكل فروعهم، وهي معادلة يكاد يكون التوسط لدخول ابليس إلى الجنة أسهل منها!

ولو كان لأي مراسل تلفزيوني في سورية عقل انشتايني، يمكّنه من التفكير

بكل الهواجس التي تمرُّ في رأسه، والإجابة عن السؤال المطروح عليه في نفس الوقت، فردَّ فعله الأول عندما يسمع من مذيع النشرة كلمة «استجواب»، في توصيف لقاء المحقق براميرتز بالرئيس الأسد ونائبه فاروق الشرع، تكاد تكون مطابقة لردّ فعل رجل يقف على الرصيف، وفجأة يُدفع من الخلف إلى شارع تمر فيه سيارة مسرعة، ويكاد المشاهد يسمع من شاشة التلفزيون، أصوت مكابح السيارة مختلطة بصراخ الرجل، وفي تلك اللحظة يتمنى المراسل لو أن الله خلقه سعداناً بدل الانسان، ويصبح حلم حياته أن يصاب بذبحة قلبية مفاجئة، ولأن هاتين الأمنيتين ليستا في متناول يده، يجد أمامه ثلاثة طرق عليه أن يختار أحدها، فإما أن يقرر الانتحار فيمرر كلمة «استجواب» دون أن يرد عليها ويصححها، أو يتبع أسلوب الدكتور عماد فوزي الشعيبي في تمثل شخصية غوار الطوشة ويسخر منها ومن المذيع، واختياره لهذه الطريقة فيها مقامرة بعمله كله، أو يعيد توزيع أدوار المسلسل التلفزيوني القديم «دليلة والزيبق»، فيأخذ هو دور الزيبق بدلاً من حسن أبو شعيرة ويعطي المذيع الذي يوجه إليه الأسئلة دور دليلة بدلاً من منى واصف، وهي الطريقة التي غالباً مايتبعها المراسلون في سورية، ولذلك تصبح اللقاءات المباشرة معهم في نشرات الأخبار أقرب إلى مطاردات (توم وجيري)، فالمذيع يسأل سؤالاً من الغرب، والمراسل يرد بجواب من الشرق، ولأن بعض المذيعين ساديين فهم يجلسون في استديوهاتهم المكيفة، التي تبعد آلاف الكيلومترات عن مراكز فروع المخابرات في دمشق، ويتفننون في تقليب المراسل على النار، فيسألونه بشفة مقلوبة وشماته ظاهرة: ومادمت تقول أن حضور المحقق الدولي براميرتز إلى دمشق، كان هدفه اللقاء وليس الاستجواب، فهل تتوقع أن

يسافر براميرتز ليلتقي بملك الأردن، ورئيس وزراء اسرائيل، والرئيس التركي، باعتبارها من الدول المحيطة بلبنان؟ فيجيب المراسل الذي يتحدث من حي دمشقي لابد وأن توجد فيه مراكز ثلاثة فروع مخابرات على الأقل، بمازوشية مقصودة أن لقاءات براميرتز في دمشق، حسب وصف مصادر مطلعة كانت ايجابية، وبينما يركب المذيع سؤاله التالي، من أكثر الكلمات سادية، يستغل المراسل الوقت للدعاء عليه في سره بإحدى دعوتين، فإما أن يصيبه الله بعلة لا يعرف طبيب لها دواء، أو أن يجعل آخرته مراسلاً تلفزيونياً في سورية!

وكل رسالة تلفزيونية من دمشق تفوق خطورتها خطورة خمسين سنة من التدخين، وسواء أتى براميريز إلى دمشق أو لم يأت فإنه يسبب مشكلة للمراسل، وإذا قامت المعارضة باعتصام، أو أصدرت لجان احياء المجتمع المدني بياناً، أو أطلق المحامي أنور البني تصريحاً عن اعتقالات في دمشق، أو أغلقت جريدة، فإن المراسل التلفزيوني يضع يده على قلبه خوفاً من تغطيته، ولو حاول الانفرد بخبر، يخاف أن يحدث معه ما حدث مع مراسل جريدة «النهار» شعبان عبود، فيشحط من بيته لينام ليلتين في المخابرات ثم يحال على القضاء، ولو سرّب له مصدر أمني خبراً فسيخاف من مصدر أمني آخر، يود شد أذن المصدر الأمني مسرّب الخبر فيسجن المراسل، ويتذكر ماحدث مع مراسل جريدة الحياة ابراهيم حميدي، وحتى لو بدأ المراسل يومه بشرب القهوة في الأمن السياسي، ثم أفطر في الأمن الخارجي، وتغدى في أمن الدولة وتناول العشاء في الأمن العسكري، فإن ذلك لايحميه إذا رفت عينه ولو بدون قصد، في جزء ما من رسالته التلفزيونية، وخطر على بال مرجع ما، أن يفهمها على انها نوع من

الاستهتار، وعليه مراعاة علامات الترقيم، فقد يحاسب على الفاصلة، ويعاقب على النقطة، ويؤنب على إشارة الاستفهام، ويمسح به الأرض بسبب إشارة تعجب، ويستدعى للتحقيق بسبب فاصلة منقوطة.

ولهذه الأسباب تحول المراسل التلفزيوني في سورية، من رجل يستيقظ كل صباح ليبل سبابته بريقه، ثم يرفعها في الهواء، ليعرف اتجاه الريح السياسية التي عليه أن يبث رسالته معها، بهامش صغير يظنه متاحاً للحركة، إلى رجل يكتفي بأخبار وكالة سانا الرسمية، ويأخذ دور الناطق الرسمي للحكومة، وبسبب هذا التحول لم تعد قناة الجزيرة صهيونية في المفهوم السوري، وعاد اسم قناة «العربية» إليها بعد أن سميت سورياً لبعض الوقت بـ«العبرية»، وصار المشاهد يظن وهو يتابع أي خبر سوري على أية فضائية عربية، أنه يشاهد التلفزيون السوري!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 1/ 5/ 2006

تعميـم إعلامي سـوري:
خرزة زرقاء لكل صحافي اتقاءً للحسد!

لم يخطر لي في أية لحظة من اللحظات أني سأعثر على إنسان يتمتع بحواس السمع والنظر والنطق، ويستطيع أن يبدي إعجابه بالاعلام السوري، إلى أن تابعت ما قاله وزير الاعلام السوري الجديد الدكتور محسن بلال، في الندوة التي أقامتها جريدة (الثورة) الدمشقية، لأكتشف أن الوزير ليس فقط معجباً بهذا الاعلام، بل ويقول فيه ما لم يقله جميل في بثينة، ولا قيس في ليلى، إلى الحد الذي جعلني أتخيل بأنه يسهر كل ليلة تحت شباك جريدة تشرين، في انتظار الحصول على أول نسخة منها، ويتلقفها بلهفة عاشق متيم، لرسالة غرام تصله من فتاة أحلامه، ويجلس أمام التلفزيون السوري بنفس الخفر والحياء والغبطة، الذي يميز اللقاء الأول بين عاشقين، فالوزير الجديد ليس كسابقيه من وزراء الاعلام، الذي تسلموا المنصب وهم يتحدثون عن رغبتهم في تطوير العمل الاعلامي، لأنه يظن اساساً أنه قد بلغ الكمال، ويتأمله كما يتأمل دافينشي الجوكندا، ويحسد العاملين فيه على الحرية التي يتمتعون بها، وأظنه من فرط خشوعه أمام الاعلام، وخوفه على العاملين فيه من الاصابة بالعين، سيصدر توجيهاً بتوزيع خرزة زرقاء وآية الكرسي، على كل صحافي سوري ليعلقها على صدره ويدرأ عن نفسه شر الحسد.

انني أعتبر نفسي المحظوظين فعلاً لأن الله منّ علي بالعيش في زمن سمعت فيه عن صعود غاغارين إلى الفضاء، ونزول الانسان على سطح القمر، واكتشاف الخريطة الجينية للانسان، واستنساخ النعجة دوللي، والعثور

على أول انسان في العالم معجب بالاعلام السوري، وقد تأكدت من صدقية كلام الوزير بلال عن غياب الحرية في الاعلام الغربي وخضوعه للرقابة، حين نظرت (في اليوم التالي لندوة الوزير في جريدة الثورة) إلى الصفحة الأولى، في جرائد اللوموند والتايمز والواشنطن بوست، ولم أقرأ مانشيتاً كبيراً ينقل خبر العثور على أول انسان في العالم معجب بالاعلام السوري، فلولا رقابة (الغمزة والتلفون واللقطة المتحكمة بالاعلام الغربي، والتي تفوق رقابة القبضة الحديدية في دول العالم الثالث) حسب رأي الوزير بلال، لكانت صوره وآراؤه يجب أن تعتبر حدثاً تاريخياً، يقسم التوقيت العالمي إلى مرحلتين، قبل وبعد، مثلها مثل ميلاد السيد المسيح، والهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، ويؤرخ البشر أحداثهم على أساسها، فيصبح تاريخ استقلال سورية، في السنة التاسعة والخمسين قبل العثورعلى أول إنسان في العالم، معجب بالاعلام السوري، وقس على ذلك..

للحقيقة كنت قبل ندوة الوزير بلال أنظر إليه، وهو يتنقل من وزارة الإعلام إلى مجلس الوزراء، ومن اسبانيا إلى سورية، مثل نظرة الامام أبو حنيفة إلى رجل جليل صامت يحضر أحد مجالسه، وكان الامام حينها يشعر بألم في ساقه، واحتراماً منه لوقار الرجل لم يمدها، إلى أن توجه الرجل بسؤال لأبي حنيفة، فكان جواب الامام: آن لأبي حنيفة أن يمد قدمه، فاعتبار الوزير بلال الصحفيين السوريين محظوظين، وطلبه منهم عدم الاستخفاف بالحرية المتاحة لهم، يذكرني بأحد مشاهد فيلم (الحدود)، الذي يصور مهرجاناً تضامنياً مع عبد الودد بطل الفيلم، العالق بين حدودين، فأي حرية تلك التي يعتبر فيها الحديث عن السيد رامي مخلوف وشركاته، يدخل ضمن محرمات أمن الدولة، لا لشيء إلا لأنه يمت بصلة

قرابة لرئيس الجمهورية، وتناول أعمال السيد محمد حمشو يعتبر خطاً أحمر، باعتباره يتحدث صباح مساء عن علاقته الشخصية بالعقيد ماهر الأسد، وهل يستطيع مثلاً أي صحفي أن يقترح تخصيص سيارة واحدة لكل مسؤول سوري، وبيع باقي اسطوله من السيارات، والتبرع بأثمانها للحملة الجارية لمساندة الشعب الفلسطيني، ولماذا فقط على الشعب المعتر أن يقطع من قوت يومه لمساندة فلسطين، بينما المسؤول السوري لايتنازل عن واحد في المئة من رفاهيته، لأجل هذه الـ«فلسطين» التي لولا شعاراتها المرفوعة منذ أربعة عقود لما كان مسؤولاً!!

أما حديث الوزير بلال عن أنه سيكون محامياً للصحفيين، في أي محفل من المحافل التي يتواجد فيها، فقد سبق لعلي فرزات أن رسمه في احدى لوحاته الكاريكاتورية، التي تصور رجلاً موشكاً على الغرق، وأمامه على الشاطئ رجل يحاول انقاذه، برسم طوق نجاة على ورقة ويرميها له، فهل سيكون موقف الوزير بلال أفضل من تصور علي فرزات الكاريكاتوري، فيما لو استدعي صحافي إلى المخابرات، وطالبه اللواء علي مملوك مدير المخابرات السورية، بما طالبني به من عرض مقالاتي على المخابرات قبل نشرها، وماهي وجهة نظر الوزير بلال في نظرية اللواء مملوك الاعلامية، عندما ناقشته في أحد مقالاتي التي استدعيت من أجلها، حول مؤتمرات الدكتورة بثينه شعبان الصحفية خلال مؤتمر البعث الأخير التي لم تقدم معلومة، فقال لي اللواء مملوك: نحن أحرار نعطي مانريد ونمنع مانريد!

ثم هل يظن الوزير بلال وهو يتحدث عن أكذوبة الاعلام الحر في العالم، أن جريدة الثورة التي عقد فيها ندوته، هي التي فجرت فضيحة سجن أبو غريب في العراق، أو أنه يعتقد بأن التلفزيون السوري أول من تحدث

عن المعتقلات الأمريكية في بعض الدول الأوربية، وإذا كانت مثل هذه الأحداث من أكاذيب حرية الاعلام الغربي، فلماذا يتاجر فيها الاعلام السوري كل يوم، وليعطينا الوزير بلال مثالاً عن صدقية الاعلام السوري، فيسمح بنشر أي قصة من قصص التعذيب في أي سجن، أو حتى مركز مخابرات سوري، إلا إذا كان يظن أن من يعتقل في سورية، يقضي وقته في تناول الـ«كوردون بلو» وتعلم رقص الفالس، وشرب الـ«جوني ووكر» بالصودا!!

أما اعتبار الوزير بلال بأن وصف الخطاب السوري بالخشبية، هو وصف خارجي ومستورد، فيحتاج إلى ضارب بانجو من الأشقاء المصريين ليسلطن عليه، ويسأله مستورد نظامي ولاّ تهريب ياأستاذ؟ وإذا كان مستورد نظامي وتعطل معه كفالة يافندم؟ وكام مدة الكفالة يابيه؟ والوكيل بيصلحه إذا تعطل مجاناً ولاّ بيطلب فلوس ياباشا؟

عندما وصّفت حالة وزارة الاعلام السورية قبل ثلاثة أسابيع في هذه الزاوية، لم يخطر لي أن يعقد الدكتور محسن بلال وزير الاعلام في سورية، ندوته في جريدة (الثورة) بدمشق، ليقدم البرهان العملي على كلامي النظري، ويتبرع مشكوراً – من خلال شرح مفهومه للإعلام – بأن لا يظهرني كاذباً، أو حاقداً، أو متجنياً على هذا الإعلام، وإذا كان علي واجب رد الجميل له، فإني أتمنى من كل قلبي أن يبقى وزيراً للاعلام لسببين: الأول كون نظرياته الاعلامية أصبحت من السلالات المهددة بالانقراض في العالم، مثلها مثل دبب الباندا، وأقترح اعتبار وزارة الاعلام السورية ومؤسساتها، من المحميات الطبيعية التي يحرم فيها الصيد، والثاني: كون الحفاظ عليه في وزارة الاعلام، أقل خطراً على الأرواح البشرية، من

عودته لمهنته الأصلية كطبيب جراح، فيما لو كانت أفكاره الطبية على نسق نظرياته الاعلامية!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 8/ 5/ 2006

دبلوماسيو سورية المستقبليون

إذا صح ما نقلته نشرة «كلنا شركاء» عن موقع «سيريا نيوز» الالكتروني، حول أسئلة الامتحان الكتابي، الذي أجرته مؤخراً وزارة الخارجية السورية لانتقاء 30 ديبلوماسياً مستقبلياً، من بين 2400 متقدم جامعي وحامل درجتي الماجستير والدكتوراه، من جامعات عالمية مرموقة، فإننا سنتحسر في الأيام القادمة على عميد الدبلوماسية السورية السابق الأستاذ فاروق الشرع، ونعض أصابعنا ندماً على تصريحاته، التي غسّل فيها الولايات المتحدة الأمريكية ومشّطها، في جلسة مجلس الأمن حول احتلال العراق، بينما جلس مندوبا الصين وروسيا، الدولتين الدائمتي العضوية في مجلس الأمن صامتين يتأملان شجاعته، محاولين تخمين عدد الرؤوس النووية التي تملكها سورية، حتى يستطيع وزير خارجيتها بهدلة أمريكا بهذه الطريقة، وسنبكي بدموع على المشية الواثقة للدكتور فيصل المقداد مندوب سورية السابق في الأمم المتحدة، بعد خروجه من أي اجتماع لمجلس الأمن بابتسامته الواثقة على شفتيه، ويده اليمنى المخبئة في جيبه، وهو يتحدث للصحفيين باستهتار وانتصار عن طرحه أرضاً لمندوبي أمريكا وبريطانيا وفرنسا في مجلس الأمن وبرأس إصبعه!

فأنا كسوري أشعر اليوم بالخوف، بعد أن قرأت الأسئلة التي أجاب عليها دبلوماسيو سورية الجدد، في امتحانهم الكتابي، ولا أزال من لحظة قراءتها وحتى الآن، أنظر فيها غير مصدق، وأبحث عن بالون لأنفخه، وأتأكد من أنني لست سكراناً، وأرسم خطاً مستقيماً على أرض الغرفة، وأمشي عليه، لأبرهن لنفسي بأنني لست محششاً، وأقرص نفسي، لأتأكد بأنني

لا أشاهد مناماً، فهل من المعقول ياناس أن يوجه سؤال لدبلوماسي مستقبلي، من قبيل: عدد منجزات ثورة الثامن من آذار؟ فما الذي سيفعله الدبلوماسي حتى لو عرف الاجابة على هذا السؤال، الذي يتكركر لسماعه طلاب المرحلة الاعدادية في المدارس السورية، باعتباره درساً في تعليم الكذب، هل سيجلس الدبلوماسي الذي يجيب على هذا السؤال، مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك، ليقنعه مثلاً بأن يتخلى عن منجزات الثورة الفرنسية، ويتبنى منجزات ثورة الثامن من آذار!

وما الذي سيستفيد منه الدبلوماسي المستقبلي، فيما لو عدد نتائج حرب تشرين التحريرية، التي يطالبه بها السؤال الثاني لامتحان وزارة الخارجية السورية، فعلى فرض أنه استطاع اقناع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بأن نتائج حرب تشرين، أهم من نتائج الجيش السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، وأغرت نتائج حرب تشرين التحريرية الرئيس بوتين، فطلب من الدبلوماسي السوري المبادلة، بحيث تتخلى له سورية عن حرب تشرين، في مقابل أن يتخلى لها عن الانجازات السوفييتية في الحرب العالمية الثانية، ويعفيها من كل الديون المترتبة عليها، ألا يضع ذلك الطلب الدبلوماسي السوري في حرج كبير؟

وهل سيستطيع الدبلوماسي السوري المستقبلي، فيما لو أجاب عن السؤال الثالث للامتحان حول خصائص الحركة الصهيونية، أن يشرحها للرئيس الأمريكي جورج بوش، وهما يجلسان منفردين في البيت الأبيض، بشكل يؤثر فيه أبلغ تأثير، فيضرب الرئيس بوش جبهته بيده، ويقول للدبلوماسي السوري بالعامية المصرية: أما أنا طلعت مغفل بشكل، ودولت اليهود مستغفليني، ويقرر من فوره قلب الموقف الأمريكي رأساً على عقب، ودعم

الفلسطينيين بدلاً من الاسرائيلين، ويتحول إلى محاضر مختص بخصائص الحركة الصهيونية، وكل ذلك بسبب السؤال الذي امتحنت به وزارة الخارجية السورية دبلوماسييها المستقبليين!

ولأن وزارة الخارجية لاتنسى بريطانيا، فقد وضعت سؤالاً عن وعد بلفور ونتائجه، ومن المؤكد أن الدبلوماسي السوري المستقبلي، سيجادل فيه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير طويلاً، وسيلزق له في 10 داوووننغ ستريت حتى يقنعه بمساوئ وعد بلفور، ولابد أن يستطيع التأثير عليه، وسنشاهد بعدها جلسة عاصفة لمجلس العموم البريطاني، وسيقوم النواب ويقعدون مئات المرات، ثم سيقررون التخلي عن الأرض البريطانية للفلسطنيين، تكفيراً عن ذنبهم بإصدار وعد بلفور، وينتقلون إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، في مقابل انتقال الفلسطينيين للعيش في (فلسطينيا العظمى)، كما سيطلق على بريطانيا، بفضل وحكمة سؤال وزارة الخارجية السورية لدبلوماسييها المستقبليين!!

ولأن لألمانيا ثأر قديم من أيام الحرب العالمية الثانية مع فرنسا وبريطانيا، فستقتنع من الدبلوماسي المستقبلي السوري بسهولة، حين يشرح لها جوابه الذي كتبه في ورقة امتحان وزارة الخارجية السورية، على السؤال الخاص باتفاقية سايكس بيكو ونتائجها، وقد تقرر المستشارة ميركل شن حرب عالمية ثالثة، لا من أجل ألمانيا هذه المرة، ولكن كرمى لعيون الدبلوماسي لسوري وانتقاماً من السيدين سايكس وبيكو اللذان قسما بلاد الشام!

من حق أي سوري وليس أنا فقط أن يخاف، وهو يقرأ أسئلة الامتحان الذي يقدمه دبلوماسيو سورية المستقبليون، فمثل هذه الأسئلة يمكن أن تسأل لبعثي، يود نقل عضويته في حزب البعث من نصير إلى عضو

عامل، باعتبارها شغلة أهلية بمحلية، أو يتبرع بقولها مزارع سوري لرئيس الجمعية الفلاحية ليدلل له على التزامه القومي والوطني، وليدرأ عنه شر تقرير أمني، أو يكتبها المعلق السياسي لإذاعة دمشق، باعتبار أنها أشياء لاتضر ولاتنفع، وتؤمن له دخلاً، أما أن تكون عدة الشغل لديبلوماسي، فهذا يفسر لماذا يزاول كل دبلوماسيينا السوريين مختلف المهن باستثناء الدبلوماسية!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 6/ 5/ 2006

سورية: دولة أمرك سيدي!!

لا يمرّ على سورية يوم، إلا ويسمع السوريون بخط أحمر جديد عليهم ألاّ يتجاوزوه، حتى ليخيّل للسوري من كثرة الخطوط الحمر، التي عليه أن يتفاداها، أن الصين حصرت توزيع كل انتاجها من الأقلام الحمر بالسوق السورية، فأول شيء يفعله كل سوري حين يفتح عينيه في الصباح هو السؤال عن الخط الأحمر الجديد، الذي تمت إضافته إلى الممنوعات السورية الكثيرة، وتخطئ كتب الجغرافيا في المدارس كثيراً حين تهمل إضافة الخطوط الحمراء، إلى المنتجات التي تشتهر بها الجمهورية العربية السورية، فالزيادة الوحيدة في الانتاج السوري توجد في قطاعات الخطوط الحمر، ولو أضافت وزارة السياحة السورية إلى شعاراتها الترويجية لتنشيط السياحة كلمة الخطوط الحمراء، لتصبح: أهلاً بكم في سورية أرض الحضارات والخطوط الحمراء، لتمكنت من مضاعفة عدد السياح في سورية، لأن أي سائح يبحث عادة عن العجائب والغرائب التي لايراها في بلده، وإذا كان السوريون الحاليون قد اكتشفوا الرقم المسمارية، وتماثيل أورنينا، وزنوبيا، وغيرها من اللقى، التي أبدعتها حضارات أوغاريت وايبلا وماري وتدمر على أرضهم، فلن تعثر الأجيال القادمة من السوريين إلاّ على الخطوط الحمراء، من آثار هذه المرحلة من تاريخ سورية.

فعلى مدار العقود الأربعة الماضية صدرت قوائم بخطوط حمراء، لو أعاد السوريون النظر فيها اليوم، لما عثروا على نكته في العالم أكثر إثارة للضحك منها، ولاكتشفوا أنهم مجموعة من المغفلين لأنهم خافوا منها، وبذلوا جهدهم في ألاّ يتجاوزوها، ففي يوم من الأيام كان مجرد لفظ

كلمة العراق (وهو بلد عربي شقيق لمن يجهل ذلك) في سورية العروبية، يدخل لافظها السجن، ولاتزال لدى بعض السوريين جوازات سفر مهرت بخاتم، في الصفحة المخصصة للبلدان التي يحق لحامل الجواز دخولها، يقول «جميع دول العالم ما عدا العراق»، وفي مرحلة أخرى كان مرور اسم الأردن أمام أي سوري، يثير نفس ردة الفعل التي يثيرها ذكر الشيطان الرجيم في حضور مؤمن، وذكر اسم الأستاذ رياض الترك علناً، يشبه من يرتدي قميصاً عليه الصليب النازي المعقوف في شارع اسرائيلي. وفي ثمانينات القرن الماضي، كان السوري -من تلقاءِ نفسه- يتحاشى أن تمر كلمة الإخوان في حديثه، ويحرص على استبدالها بالأشقاء أو الرفاق أو الشباب، خوفاً من أن يجتهد إبن حلال، ويربطها بتنظيم الاخوان المسلمين، ويستبدل كلمة البيانو بالأورغ، خشية من إبن أصل يربط كلمة البيانو بالأستاذ البيانوني زعيم الاخوان المسلمين، بعد أن أصبح مجرد ذكر اسم الاخوان المسلمين، أو مايمت إليهم بصلة في سورية يعني أن ذاكره قرر الانتحار!

وإذا كانت هذه الخطوط الحمراء تبدو مثيرة للسخرية اليوم، رغم أن آلاف السوريين نكل بهم، وماتوا وسجنوا وعذبوا لمجرد الاشتباه بأنهم تجاوزوها، فإن مايثير السخرية أكثر هو اختلاط الخطوط الحمراء وتبدلها، بشكل يتجاوز أي منطق في الكون، فالسوري الذي عاش وتربى على اعتبار اسرائيل عدوه اللدود، ولم يترك نعتاً من نعوت العدوان في كل القواميس، إلاّ واستخدمه ضدها (باعتبار اللغة هي الساحة الوحيدة المتاحة أمامه لمواجهة اسرائيل)، فوجئ هذا السوري بالأستاذ فاروق الشرع وزير الخارجية السابق ونائب الرئيس الحالي، وهو يصافح يهود باراك على شاشة التلفزيون

بدعوى التفاوض، رغم أن القوانين السورية التي تحكم على من يلتقي بأي اسرائيلي بالخيانة لاتزال سارية، ورغم أنه لايزال ممنوعاً على أي عربي أو غربي، وجد على جواز سفره ختم اسرائيلي دخول سورية!

ثم هل على السوري أن يضرب في المندل، ليعرف ماإذا كان تعامله مع أي مسؤول في سورية، سيعرضه في يوم من الأيام للسين والجيم، ففي زمن مضى كانت العلاقة بالسيد رفعت الأسد نائب رئيس الجمهورية السابق امتيازاً لصاحبها، يفاخر بها أمام أهله، وجيرانه يحسبون له ألف حساب بسببها، وفجأة تحولت إلى تهمة يحاول نفيها عنه بأية وسيلة، وكان التقرب من المرحوم محمود الزعبي رئيس مجلس الوزراء الأسبق طموحاً، يؤمن صاحبه مستقبله ومستقبل أولاده من خلاله، وفجأة أيضاً صار الشاطر من السوريين، هو من بزاود على غيره في التبرؤ من المرحوم الزعبي ، وحدث الأمر نفسه مع الأستاذ عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري السابق (مع اختلاف عن الحالتين السابقتين في أنه هو الذي استقال بينما الآخران أقيلا)، فقد كان كل الذين ظهروا على شاشة التلفزيون في مجلس الشعب السوري، ليردحوا له بعد انشقاقه، ينتظرون أياماً للحصول على موعد لمقابلته، ولايزال السوريون يحفظون في ذاكرتهم، الفترة التي كان فيها الاقتراب من اللواء آصف شوكت مدير المخابرات العسكرية الحالي خطاً أحمر، يمنع الاقتراب منه!

حدث ذلك كله ولم يخرج أحد في سورية، ليقول للسوريين لماذا تحول (السيد والرفيق الذي تملأ وظائفه وألقابه خمسة أسطر في ورقة فولسكاب وتنتهي بكلمة المحترم) خطاً أحمر، ولماذا يشعر كل مواطن في سورية، بأنه مثل تلميذ مدرسة ابتدائية في حالة امتحان دائم، وهو يرى استاذه ممسكاً

طوال الوقت بالقلم الأحمر، ولماذا على السوري أن يعيش في دولة، تريد تحويل كل من فيها إلى كراسين وحجّاب لايعرفون من اللغة إلاّ كلمتي أمرك سيدي!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 9/ 5/ 2006

سورية تكتشف طريقة التداوي بالتلفزيون

من حق أي سوري أن يقلق على مصيره اليوم، فقد أصبح يشعر بنفسه عند مشاهدته لأية محطة فضائية، بأنه مثل الدجاجة التي تدور داخل شواية في محلات بيع الفروج المشوي، فإن حاول أن يشاهد أخبار (الجزيرة)، سيعده مراسلها في نيويورك طلال الحاج، وهو يتحدث عن التحرك الفرنسي الأمريكي البريطاني، بقرار من مجلس الأمن الدولي، يلزم سورية بترسيم الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية مع لبنان، وإن انتقل إلى (العربية)، فستقول له منتهى الرمحي بأن الرئيس بوش قرر تجديد العقوبات على سورية، وعلى شاشة (المستقبل) سيرى ديفيد وولش مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية يصرح، بأن سورية لا تزال الدولة الوحيدة المتورطة باغتيال رفيق الحريري، وفي الـ LBCI سيظهر له وولش من جديد، وهو يصف العلاقات السورية الأمريكية بأنها تحت الزفت، وينطقها بالعربية نكاية بالسوري المسكين، الذي يشاهده وحتى لايستطيع أي مترجم تلطيفها، وعندما يقرر السوري أن يبحث عن قناة، من تلك التي يكتبها الأطباء في وصفاتهم الطبية كعلاج فعّال للأرق، ويختار الأردنية، يفاجأ بأنها تبث اعترافات عناصر حماس الثلاثة حول تلقيهم تعليمات من قيادات في سورية، لتنفيذ عمليات عسكرية في الأردن، وساعتها يقرر هذا السوري بأن يشاهد أية قناة عراقية تعرض صور جثث ضحايا العمليات الارهابية في العراق، حتى تهون عليه مصيبته وهو يرى مصيبة غيره، لكن حظه يقوده لسماع تصريح الرئيس العراقي جلال الطالباني، الذي اعتبر فيه سورية المصدر الأساسي لدعم المسلحين في العراق، فقد أصبح من

النادر أن يمر السوري بقناة تلفزيونية عربية أو أجنبية، إلا ويسمع فيها كلمة سورية بلهجة لا توحي بأن «الله حاميها»، وانما توحي بأنه «لكل أجل كتاب»، ويكفي أي سوري رؤية وجه وزيرة الخارجية الأمريكية كوندليزا رايس، أو المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة جورج بولتون، أو الرئيس الفرنسي جاك شيراك، أو سيرج براميرتزالمحقق الدولي في اغتيال الرئيس رفيق الحريري، حتى وإن كانوا يتحدثون بالسنسكريتية، ليعرف أنهم يتحدثون عن سورية باعتبارها مشكلة، وليس دلالة على أهميتها كما كان يحلو لشكوكو الاعلام السوري الدكتور مهدي دخل الله، تفسير ترداد اسم سورية في الاعلام، أو باعتبارها طرفاً في مكاسرة إرادات مع أمريكا، كما كان يحب تسميتها الدكتور عماد فوزي الشعيبي، الذي ينتمي لمدرسة المرحوم توفيق الدقن في التحليل السياسي.

أمام أي سوري تلقمه المحطات التلفزيونية كل دقيقة، كيف أصبح اليوم يعيش في دولة مواجهة عن جد، لا باعتبارها علكة بنكهة المواجهة، كان معتاداً على وضعها في فمه لتغيير طعمته سابقاً، حل من اثنين: فإما أن تصيبه ذبحة قلبية ويرتاح الراحة الأبدية، أو القيام بمجازفة العودة لتعاطي التلفزيون السوري، الذي لاتنصح المراجع الطبية باستخدامه إلاّ في حالات الألم الشديد، وعندما لايعود المورفين مؤثراً، فأمام شاشته يشعر السوري بسلام روحي لايعادله إلا سلام وجوده في مقبرة، ويشعر مشاهده بأن لكل مشكلة حل أبسط مما تصوره، ولاداعي لأن يعقد أي أمر عليه، وبوجود نضال قبلان وبرنامجه «دائرة الحدث»، لاتوجد مشكلة أساساً، ليصدر مجلس الأمن قراره الذي تتوعد به فرنسا وأمريكا وبريطانيا، ما الذي سيحدث أكثر من إحضار نائب الحزب القومي السوري في البرلمان

اللبناني مروان فارس، والوزير اللبناني وئام وهاب إلى استديو التلفزيون السوري، ليجلسا أمام المذيع نضال قبلان، الذي سيجري أيضاً اتصالاً هاتفياً بالمحلل السياسي الدكتور فايز الصايغ مدير عام التلفزيون السوري، والذي لا تبعد غرفته عن الاستديو أكثر من خمسة عشر متراً، ثم يبدأ الأربعة دخول «دائرة الحدث»، ويكفي المتحاورين امتناع دولة واحدة عن التصويت للقرار، حتى لو كانت بحجم قطر، ليصبح القرار بغض النظر عن صدوره مشكوكاً بأمره، ويتم دراسة دلائل عدم الاجماع عليه، وقراءة مابين السطور في أهمية امتناع دولة عن التصويت عليه، ثم ينتقل الحوار للتشكيك بمجلس الأمن من أساسه، واعتباره لايمثل الشرعية الدولية، ويزاود كل منهم على الثاني في طرح الأمثلة حول تحوله إلى ألعوبة بيد الأمريكان، ناسين أنهم في حلقات سابقة من البرنامج اتهموا أمريكا بأنها شنت الحرب على العراق بدون تفويض أممي، وخارج الشرعية الدولية، ويستذكر كل منهم قرارات الأمم المتحدة التي لم تطبقها اسرائيل، وعندما تأتي سيرة المواقف القومية لسورية، التي يؤكدون جميعاً بأنها السبب الرئيسي وراء صدور القرار، يتحول البرنامج إلى مايشبه مزاداً علنياً لاينقصه إلاّ جرس وكلمات مثل (على أونا على دويه على تري)، إلى الحد الذي يشعر به متابعهم أن سورية هي الدولة الوحيدة في العالم، التي لها مواقف قومية ومبدئية وثابته، بينما كل الدول العربية والعالمية مواقفها مذبذبة وزئبقية وانتهازية ورجراجة.

ولو قدّر لأي كاميرا في العالم أن ترصد ما يحدث للسوري مع ظهور الشارة الأخيرة لبرنامج «دائرة الحدث»، لشاهد ما يشبه التحول لدى شخصية باباي الكارتونية بعد تناوله لعلبة سبانخ، ينتفخ صدره قوةً،

ويشعر بالزهو كما لو أنه حضر اجتماعاً عسكرياً لجنرالات دائرة الحدث الأربعة، أطلعوه فيها على مايملكونه من أسلحة قادرة على نسف مجلس الأمن بأعضائه مع دولهم، وليس فقط مواجهة قرار صغير مكتوب على ورق، لايقدم ولايؤخر، ويؤذي مصدريه أكثر مما يضر بسورية!

وإذا كان مجلس الأمن بأعضائه الخمسة عشر، لايأخذون بيد نضال قبلان أكثر من ساعة واحدة لتسفيههم، ورد كيدهم إلى نحرهم، فالأمر أسهل بالنسبة لقرار الرئيس الأمريكي بتجديد العقوبات على سورية، فهذا لايحتاج لتدخل جنرال بحجم نضال قبلان، كونه لايمثل أكثر من دولة واحدة، ويمكن لصول في التلفزيون من مستوى نضال زغبور أن يتولى أمر الرد عليه، خاصة وأن النائب السوري الشيخ الدكتور محمد حبش، يمكن العثور عليه في استديو التبادل الاخباري، يسجل مقابلة مع محطة فضائية عربية، كما يمكن استعارة دكتور القانون الدولي ابراهيم الدراجي، من استديو الأخبار في التلفزيون، وخلال ساعة يصبح الثلاثة على الهواء في برنامج «مدارات»، في حلقة تاريخية تشعر السوري بأنه شاهد جلسه للمحكمة الدستورية العليا في الولايات المتحدة، وأن قضية سحب الثقة من بوش مسألة وقت، وربما لن يقف الأمر عند سحب الثقة، بل يتعداه إلى الحكم بتجريده من حقوقه المدنية، وعندها لن يكون لقراره بتجديد العقوبات على سورية أية تبعات.

لكل مشكلة حول سورية برنامج في التلفزيون السوري، الذي سجل باسمه اكتشافاً طبياً هو التداوي بالتلفزيون، وإذا لم تكف البرامج فهناك الأغاني، فديتلف ميليس رئيس لجنة التحقيق الدولية السابق في قضية اغتيال الرئيس الحريري أوكل للمطرب ثائر العلي، الذي رد عليه بأغنية

(كل تقريرك ياميليس حقو فرنكين وفلس)، أما مواقف وتصريحات الزعيم اللبناني وليد جنبلاط، فقد أوكلت للمطرب وسيم الشعار، الذي أفحمه بأغنية (ياعيب الشوم عليك يابيك)، وأدلى بدلوه أيضاً في الشأن المحلي، فتناول انشقاق نائب الرئيس السوري السابق عبد الحليم خدام بأغنية (لعبو بعقلك ضحكوا عليك هي آخرتك ياخدام).

من حق السوري أن يطمئن اليوم فسورية أقرب اليوم أكثر من أي وقت مضى، ببرامجها التلفزيونية وأغاني الفيديو كليب، إلى بناء التوازن الاستراتيجي الذي طالما تحدثت عنه!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 15/ 5/ 2006

قناة «الجزيرة» ومراسلوها في دمشق:
القناة الرابعة للتلفزيون السوري من قطر!!

تعرضت قناة الجزيرة الفضائية منذ ظهورها، على أيدي السلطة السورية، إلى ما تعرض له الزنوج على يدي منظمة الكوكلاس كلان من اضطهاد في أمريكا، ولم يترك الرسميون السوريون إشاعة، أو نميمة، أو دسيسة، أو فسفسة تمس وطنيتها إلاّ وأطلقوها، ولأن اسرائيل موجودة وجسمها لبّيس كما يقولون، ولأن إطلاق التهم هي الخدمة السريعة الوحيدة المتاحة في سورية، لم يتعب المسؤولون السوريون عقولهم في تفصيل تهم للجزيرة، فغدت قناة الجزيرة صهيونية، أحد مموليها الرئيسيين اسرائيلي، تستضيف على شاشتها شخصيات اسرائيلية، وهي ليست أكثر من رأس حربة للمشروع الصهيوني، الذي يستهدف اختراق الجسد العربي، بحيث أصبح السوري يشعر بالخوف، وهو يمد يده لتوليفها في قوائم القنوات الفضائية التي يستقبلها في بيته، كما لو أنه يمد يده لمصافحة شمعون بيريز، ويحس بالرعب وهو يضع ابهامه على زر جهاز التحكم لينتقل لمشاهدة الجزيرة، كما لو أنه يبصم على معاهدة سلام مع أرييل شارون، وكان الشجعان من السوريين يشاهدونها في بيوتهم سراً، وأيديهم جاهزة على الريمونت كونترول للنقل إلى قناة أخرى، عند سماع رنين جرس باب المنزل، أو أي صوت مريب خارجه.

عنت قناة «الجزيرة» – عند ظهورها – للسوريين الكثير، فمن خلالها عرفوا بأنهم لا يستخدمون إلاّ خمسين بالمائة من كلمات اللغة العربية، واكتشفوا بأن مواطني العالم لا يحسدونهم على منجزات ثورة الثامن من

آذار المجيدة، ودهشوا حين عرفوا أن المواطن الأمريكي، أو الفرنسي، أو السيريلانكي قادر على العيش بدون عطاءات حركتهم التصحيحية المباركة، وذهلوا بأن هناك بشراً في الكرة الأرضية يستطيعون أن يصوتوا بـ«لا» في أية انتخابات، دون أن يصبح عنوان سكنهم الجديد فرع للمخابرات أو مقبرة، وإذا كانت مشاهدة قناة الجزيرة تعتبر تهمة بالنسبة للسوريين عند ظهورها، فإن التفكير بوجود مراسل لها في دمشق في ذلك الوقت، كان أكثر استحالة من انتخاب أسامة بن لادن رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، لكن سورية اكتشفت مع الوقت أن إعلانها الحرب على قناة الجزيرة، يشبه من حيث فاعليته الإعلامية إعلان جزر الفوكلاند الحرب على بريطانيا، ولأن قطر لاتملك حدوداً مع سورية، تمكن سورية من التدخل لوقف صراع الأشقاء، وتناحرهم في برنامج (أكثر من رأي)، وانهاء الحرب الأهلية الدائرة في برنامج (الاتجاه المعاكس)، ووضع حد للصوت الانعزالي في برنامج (بلا حدود)، وجدت أن الحل الأكثر جدوى هو إحضار الدب إلى كرمها، ثم البدء بترويضه، وهذا ماحدث فقد تم افتتاح مكتب لقناة «الجزيرة» في دمشق، وتولى ادارته جورج صليبا، الذي يملك مكتباً لتأجير معدات التصوير والمونتاج التلفزيوني، وكل علاقته بالتلفزيون لاتتجاوز حساب أيام التصوير وساعات المونتاج بالليرة السورية، ثم تحويلها إلى الدولار الأمريكي، وكل معلوماته عن السبق الصحافي يترجمها سؤاله، عما إذا كانت مسافة هذا السباق مائة متر أو ألف متر(!!)، وظهرت لأول مرة ليلى موعد في رسالة تلفزيونية، لتصبح سفيرة التلفزيون السوري في قناة الجزيرة، ولولا وجود شارة الجزيرة على شاشة التلفزيون، وإعلان ليلى موعد عن اسمها وصفتها كمراسلة للجزيرة

في دمشق، لم يكن باستطاعة المشاهد السوري اكتشاف أنه يشاهد الجزيرة، وصار الخبر السوري في قناة الجزيرة، مقتصراً على استقبال ووداع ضيوف سورية الرسميين.

بإيفاد محمد العبد الله كمراسل ثان للجزيرة ليحل محل ليلى موعد، شهد الخبر السوري انتعاشاً أعاد السوريين إلى شاشتها، وكانت كاميرا الجزيرة، وصوت مراسلها محمد العبد الله حاضرين بفعالية في كل الأحداث التي عاشتها دمشق، من جلسة مجلس الشعب التاريخية التي عدل فيها دستور سوريه، إلى كل المنتديات الأهلية التي انتشرت في البيوت الدمشقية، لكن تجربة العبد الله التي ارتبطت بربيع دمشق أنهيت بطريقة مشابهة لانهاء ربيع دمشق، فقد تمكن علي جمالو من الاستيلاء، بما يشبه الانقلاب العسكري على مكتب الجزيرة في دمشق، وكان محمد العبد الله أول ضحاياه، وساعده في ذلك استياء السلطات السورية من تغطيات محمد العبد الله للحدث السوري، فتم نفيه كمراسل للجزيرة في دبي.

إلاّ أن الجزيرة لم تستمر طويلا باعتماد علي جمالو كمدير لمكتبها في دمشق، وانهت خدماته ببيان شهير، عللت فيه سبب استغنائها عن خدمات جمالو، بأنه ليس فقط لم يف بوعده، بالتوسط لدى السلطات السورية لافتتاح مكتب رسمي لها في دمشق، بل وأيضاً غيب الخبر السوري عن شاشتها، وعادت ليلى موعد من جديد لتظهر على شاشة الجزيرة باعتبارها الدولاب الاحتياطي لقناة الجزيرة، الصالح للاستعمال المؤقت في الحوادث.

ومر زمن على الجزيرة، قبل أن تعتمد الدكتور فؤاد شربجي مديراً جديداً لمكتبها في دمشق، الذي اعتمد تكتيك عمله على أن يتحول من خادم

سيدين إلى سيد خادمين، فأوهم المخابرات السورية بأنه رجلهم الموثوق في قناة الجزيرة، وأوهم قناة الجزيرة بأنه سفيرها الأمين لدى المخابرات السورية، أما استراتيجيته في إدارة مكتب قناة الجزيرة، فتتلخص بأن يجعل من قناة الجزيرة القناة الرابعة للتلفزيون السوري التي تبث من قطر، ومن نعم الله على السوريين أن الجزيرة أقالت الدكتور شربجي قبل أن يحقق هذا الهدف!!

عادة ماتصف أية قناة تلفزيونية انهاء عمل مراسل من مراسليها، بأنه استغناء عن خدماته لديها، إلاّ في حالة الدكتور فؤاد شربجي مدير مكتب قناة الجزيرة الفضائية في دمشق، الذي أعفي من منصبه قبل أيام قليلة، لأن التوصيف المناسب لإقالة الدكتور شربجي هو انهاء خدماته للسلطة السورية في قناة الجزيرة، لأنه وخلال فترة إدارته لمكتب الجزيرة بدمشق، لم يخدم الجزيرة بقدر ماخدم السلطة السورية، فمارس بجدية لأول مرة في حياته مهنته كطبيب أسنان، وقضى معظم وقته في اقتلاع آخر ما تبقى من أضراس وأسنان وقواطع في فم الجزيرة، فأصبحت قناة الجزيرة الشاشة المفضلة للمسؤولين السوريين، وغدا الدكتور محمد حبش يقضي أوقاته بين الصلوات الخمس على شاشتها، وهو يمدح ويثني ويمجد ويبارك كل قرار تصدره القيادة السورية، ويجتهد لدعمه بما تيسر من آي الذكر الحكيم، والسنة النبوية الشريفة، وبات عضو مجلس الشعب نمير الغانم يخطف رجله بين جلسه وأخرى من جلسات مجلس الشعب ليقف أمام كاميرتها، ويفند ويشجب ويندد ويدين كل المؤمرات والتخرصات التي تستهدف مواقف سورية، وغدت الصحف السورية تذكر اسمها بوصفها مصدراً موثوقاً ومحترماً للأخبار، لا موضوعاً للشتيمة، وصار التلفزيون السوري يعاملها

معاملة شقيق عثر على شقيقته الضائعة منذ عشرين عاماً، فيفضلها عن نفسه بالأخبار، ويخلي مكان كاميراته لكاميرتها، ويخصها بالسبق الصحافي، فعندما وصل الشاهد الحلاق هسام هسام إلى دمشق هارباً من بيروت، تنازل التلفزيون السوري عن المقابلة معه لصالح قناة الجزيرة، واكتفى ببث إعلان مجاني بأنه سينقل مقابلة هامة مع أحد شهود لجنة التحقيق الدولية في مقتل الرئيس الحريري عن إحدى القنوات الفضائية العربية، وعندما لم تعرض الجزيرة المقابلة، بثها التلفزيون السوري بعد تغطية شعار الجزيرة المثبت على ميكرفونها، لكن صوت الدكتور شربجي بقي مسموعاً، وهو يحقق مع هسام هسام ويستنطقه.

مشكلة قناة الجزيرة الأساسية مع إقصاء ثالث مدير مكتب لها في دمشق، أن سورية بلد لاتستطيع كسب مشاهده إلى شاشتها، ونيل رضا سلطته في آن معاً، فلو كسبت جهة من الجهتين، فلابد لها أن تضحي بالثانية، وعليها اليوم وهي أمام تعيين مدير مكتب رابع لها في دمشق، أن تختار بين شاشة مشاهدة، أو مكتب في دمشق!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 27 / 5/ 2006

لماذا يُعرب التلفزيون السوري
باعتباره فعلاً ماضياً ناقصاً؟!

لو أن وزير الاعلام السوري وعد الصحافيين السوريين، الذين التقاهم قبل أقل من شهر في جريدة الثورة السورية بجعل البقرة تبيض، والدجاجة تدر الحليب، والأسماك تقطف من الشجر، والخضار تصطاد من البحر، لكان بالامكان تصديقه، واعتبار أن تحقيق هذه المستحيلات المعاندة لقوانين الطبيعة ممكناً، خاصة وأن الوزير بلال قادم من مهنة الطب، وربما تكون لديه تجاربه الخاصة في الاستنساخ والاستنبات، أما وأنه وعد الصحافيين بأن يكون التلفزيون السوري، وكل أحرف العلّة المضافة إليه من جرائد تشرين والبعث والثورة، إلى وكالة سانا السورية للأنباء، سيكونون مصدر الخبر السوري، فهو إما أنه يظن أنه يحاضر في مجموعة الأطفال المصابين بالشلل الدماغي، الذين شاركوا قبل أشهر في إدانة تقرير ميليس باعتصامهم ضده، فيما سمي حينها بخيمة وطن، وليس أمام مجموعة من صحفيي سورية، أو أنه قرر إدعاء النبوة، ومنافسة مسيلمة الكذاب بإطلاقه مثل هذا التصريح!

فأهون علي أن أصدق خبراً عن احتلال سورية للصين، من أن أصدق بأن الـ CNN تنقل خبراً عن التلفزيون السوري، وتعامله باعتباره ذي مصداقية، وأستطيع أن أهضم بأن سكان الأسكيمو يمشون بالبكيني في قطبهم الشمالي، إلاّ أن عقلي لن يستوعب أن تنقل الواشنطن بوست خبراً عن تشرين، والفيغارو آخر عن الثورة، والإندييندنت ثالثاً عن البعث، ويمكن لشخص ما أن يضحك على عقلي، فأصدق بأن حكومة

قبرص استأجرت باخرة لجر جزيرتها، ونقلها من البحر المتوسط إلى البحر الأسود، لكني لن أصدق أي إنسان يحاول أن يأكل بعقلي حلاوة، فيتحدث عن إمكانية أن تصبح وكالة الأنباء السورية سانا مصدراً اخبارياً لأية وسيلة إعلامية عالمية، فعادة مايكون كرار الورق الذي يعلق في ما يُسمَّى بالانكليزية W.C، أهم بكثير من كرار الورق الذي يحمل أخبار سانا، ويصدر عن الجهاز الخاص بها، في مبنى أي وسيلة اعلامية، يوجد فيه الكرارين.

ورغم ايماني الراسخ بأن كلام الوزير بلال ليس أكثر من محاولة لتكرير الماء، بهدف الحصول على البنزين، وبأن التلفزيون السوري الذي ينتمي إعرابيا إلى أفعال الماضي الناقصة، وجرائد تشرين والبعث والثورة التي تعرب عادة باعتبارها أحرفاً مشبهة بالفعل، ووكالة سانا التي لامحل لها من الاعراب أساساً، لن يكون بإمكانهم أن يصبحوا المصدر الأول للخبر السوري من الآن وحتى يوم القيامة ، إلا أنني حملت نفسي وذهبت إلى أحد العرافين، ليبصر لي في مستقبل الاعلام السوري، فرمى الودع، وأشعل البخور، وتمتم التمائم، ثم أراني على الماء بأن كلام الوزير بلال قابل للتحقيق، قابلية نزول أول إنسان إلى كوكب الشمس.

ورغم قناعتي الأكيدة بأن تصريحات الوزير بلال تشبه الفستان المصنوع من قماش رديء، والذي «يكش» ويقصر ويضيق حجمه عند أول غسله، إلاّ أنني نذرت النذور في المساجد، وأشعلت الشموع في الكنائس، من أجل ألاّ يحمل أي جهاز من أجهزة الدولة دبوساً، ويقربه من بالون تصريحات الوزير بلال، ولكن الله لم يستجب لابتهالاتي ودعواتي ونذوري، لا لأن دعائي غير مسموع، ولكن لأني أدعو لتحقيق معصية وارتكاب

اثم، فلم تترك أجهزت المخابرات للوزير بلال أربعين يوماً مهلة نفاس تمر على ولادة تصريحاته، وبعد أقل من شهر على سعادته بإطلاقها صنعت له خبراً سورياً مميزاً، باعتقالها عدداً من المثقفين والكتاب والنشطاء السوريين وعلى رأسهم الكاتب ميشيل كيلو والمحامي أنور البني، الذين لم تبق وسيلة إعلامية عربية، إلا وأفردت مساحات لأخبارهم في نشراتها الرئيسية أو في صفحاتها الأولى، باستثناء مؤسسات الوزير بلال الاعلامية التي بخلت على هؤلاء المعتقلين بخبر صغير، إن لم يكن في النشرة الاخبارية، فعلى الأقل في الشريط الاخباري، وحتى ياسيدي في برنامج (الشرطة في خدمة الشعب)، الذي يستضيف المجرمين!

وما هو موقف الوزير بلال، في ما لو ذكّره صحافي بتصريحاته عن الاعلام السوري، الذي سيكون المصدر الأول للخبر السوري؟ هل سيزاود عليه ويعتبر أن الخبر ليس سورياً، ويرد على الدهشة التي ستظهر على وجه الصحافي بقوله: لا تستغرب فكل الذين اعتقلوا مرتبطين بالمشاريع الخارجية، ويلف ويدور في حديث عن المواجهة مع العدو الصهيوني وربيبته أمريكا، والمواقف الثابتة، وبأن تحرير فلسطين يبدأ من اعتقال ميشيل كيلو، وضرب المشروع الأمريكي الامبريالي لايمكن انجازه إلا بعد سجن أنور البني، وأن التمسك بالثوابت يمرّ بحبس علي العبد الله، ليؤكد بعدها للصحافي – الذي سيصاب بالشقيقة من حديثه – بالدليل القاطع أن الخبر ليس سورياً، ولذلك تجاهلته وسائل الاعلام السورية!!

وما الذي سيقوله للمشاهد السوري الذي يستوقفه ليسأله بعد شكره، على أنه اعترف بالحدث: طيب ولو افترضنا أن الخبر ليس سورياً، لكنه خبر عن حدث حصل، فلماذا لم نسمعه من تلفزيونكم وصحفكم، بينما

لم تبقَ قناة تلفزيونية إلا وبثته، هل سيرد الوزير بلال بكل ثقة على هذا المشاهد بالقول: إن سياسة سورية الثابتة هي عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة أخرى، وباعتبار أن هؤلاء المعتقلين مرتبطون بالمشروع الخارجي، فالحديث عنهم يعتبر تدخلاً، ثم يمد يده إلى خرْجه، ويخرج منه عدة السحر البعثية، فيبدأ بمحاضرة عن الاعلام المشبوه الأصفر المزرق المخلوط بالأخضر الحشيشي، الذي يتعارض مع مبادئ وثوابت الاعلام السوري الملتزم، والهادف، والبناء باللونين الأبيض والأسود.

وكيف سيجيب الوزير بلال أي مراسل أجنبي، يسأله عن رأيه في التهم الموجهة لميشيل كيلو وأنور البني ورفاقهم المعتقلين، والتي لو عرضت نصوصها على عادل إمام لكنا سنشاهد في العيد القادم فيلماً جديداً من بطولته، وقد كتب تحت اسمه (ساعتان من الضحك المتواصل)، وكيف سيجيب المراسل عن عدم استيعابه وجود تهم في أي قانون، عقوبتها تتراوح بين السجن المؤقت والاعدام، حتى ليخيل للانسان أن محاكمتهم ستجري في مزاد علني وليس في محكمة!

وبالرغم من أنني متأكد بأن لدى الوزير بلال جواب لكل سؤال، حتى لو كان عن ارتفاع أسعار البطاطا، ولابد لهذا الجواب أن يمر بفلسطين، ويعرج على المقاومة اللبنانية، ويستريح عند نضالات الشعب الفلسطيني، ويأخذ نفساً مع العمليات الموجهة ضد الاحتلال الأمريكي في العراق، ويبل ريقه في التضامن مع حق ايران في الحصول على التقنية النووية، إلا أنني أود أن أسأل الوزير بلال سؤالاً شخصياً: ألم يشعر بالغيرة من عمار قربي رئيس احدى جمعيات حقوق الانسان السورية غير المرخصة، الذي تحول في أيام الاعتقالات إلى وزير إعلام سورية الفعلي، في حين

اكتفى الوزير بلال من الوزارة بالسيارة والمكتب والسائق والحاجب والمرافق والراتب والبدلة وربطة العنق واللقب؟ وأنا لا أنتظر جواباً من الوزير بلال، فهذه البقايا من الوزارة كانت هي الهدف الأساسي لكل وزير إعلام سابق، وستكون هي الطموح الأعلى لكل وزير إعلام لاحق!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 22 /5/ 2006

إرهابيو دمشق التلفزيونيين:
عمليات من تخطيط الشيف رمزي!

هناك ثلاثة احتمالات فقط لتفسير خبر التلفزيون السوري عن الهجوم الارهابي، الذي استهدف مبناه قبل أيام، أولها هو أن الارهابيين الذين تصدت لهم قوات الأمن السورية قبل أيام، فقتلت بعضهم وجرحت بعضهم الآخر، وأسرت المتبقي منهم، ثم عرضت صورهم على شاشة التلفزيون السوري، من النخب الثالث أو الستوك الذي تنتجه المعامل الصينية المختصة بقرصنة وتقليد الماركات العالمية «السينيبه»، ولذلك فهم ارهابيين مزورين لا إرهابيين حقيقيين، وجهة الإدعاء عليهم يجب أن تكون جمعية حماية المستهلك لا النيابة العامة، والقانون الذي يجب تطبيق أحكامه عليهم ومقاضاتهم وفق مواده، هو قانون حماية الملكية الفكرية وليس قانون الطوارئ، والمحكمة المختصة للنظر بقضيتهم هي محكمة الأمن الاقتصادي لا محكمة أمن الدولة!

إذ ليس من المعقول وجود تنظيم ارهابي في العالم، هدفه الرئيسي والوحيد من كل عملية إرهابية يقوم بها، هو ظهور جثث عناصره صرعى أمام كاميرا التلفزيون السوري، ومنح الدكتور محمد حبش فرصة عرض مهاراته الأكروباتية، وإثبات قدرات حباله الصوتية، في تقليد طقوس وصرخات قبائل الهنود الحمر، عند اصطيادهم لفريسة ورقصهم حولها، ومن غير المحتمل أن تكون مبادئ هذا التنظيم الارهابي في منتهى الإنسانية، وعلى درجة من السمو الروحي، بحيث لا يختار إلاّ الأماكن المهجورة، وأيام العطل الرسمية لتنفيذ عملياته، حرصاً منه على عدم تعريض أرواح المواطنين

الأبرياء للخطر، ومن الجنون التصور بأن هناك تنظيماً إرهابياً غايته الأولى والأخيرة، من كل العمليات الارهابية التي يقوم بها، التضحية بحياة عناصره من أجل تصوير إعلان تلفزيوني مجاني، لصالح قوات الأمن السورية، يؤكد من خلاله قوتها وقدرتها على مكافحة الارهاب والتصدي له، حتى قبل أن يقوم بأعماله التخريبية!!

أما الاحتمال الثاني لتفسير هذه العملية الارهابية فهو أن يكون التنظيم الارهابي، الذي قام بالهجوم على مبنى التلفزيون يتشكل من مجموعة حلاقين، وخبراء تجميل وتنظيف بشرة وماكياج وبالياج، من الذين نفذ صبرهم من التشويه الجمالي الذي تعاني منه الشاشة السورية، وضاق خلقهم من كمية الكحل التي تغطس فيه المذيعة عبير عثمان عينيها، قبل كل ظهور لها في برنامج «نوافذ»، بشكل يجعلها تبدو وكأنها قدمت للتو من مباراة للملاكمة، كان خصمها فيها محمد علي كلاي، وسئموا من حجم الروج الذي تستهلك كنانه حويجه إصبعاً كاملاً منه، لدهن شفتيها في كل نشرة أخبار تقدمها، بطريقة توحي بأنها التهمت دجاجة حية قبل وقوفها أمام الكاميرا مباشرةً، وملوا من قتامة لون المانيكور الذي تطلي به ناهد عرقسوسي، مقدمة برنامج «عيون الناس» أظافرها، مما يجعل نظرات ضيوف برنامجها مثبتة طوال الوقت على أظافرها، خوفاً من أن تقوم بحركة مفاجئة وتنشب أظافرها في أعناقهم، ولذلك قررت هذه المجموعة من الحلاقين وخبراء التجميل وتنظيف البشرة والماكياج والبالياج، القيام بهجومها الارهابي على مبنى التلفزيون، بهدف تصحيح الصورة التي تظهر بها المذيعات الثلاث السالفات الذكر، ومن المحتمل – والله أعلم – أن يكون قد خطر لبعض أعضاء هذه المجموعة، عند الانتهاء من

مهمتهم الارهابية الأساسية المرور إلى استديو برنامج «دائرة الحدث»، لاقناع مقدمه نضال قبلان ببيروكة جديدة، بعد التأكيد له بعدم وجود أي تأثيرات جانبية لها على سياسة برنامجه، ومواقفه المبدئية والثابته مثل ضيوفه، والتعريج على استديو برنامج «مدارات»، ومحاولة التأثير على مقدّمه نضال زغبور بنتف جزء من حاجبيه، حتى يستطيع المشاهد التفريق – على الأقل في الشكل – بينه، وبين الوجوه التي تظهر في رسومات فنان الكاركاتير السوري علي فرزات.

ما يجعل هذا الاحتمال أقرب للمنطق في تفسير العملية الارهابية، التي استهدفت مبنى التلفزيون السوري، هو أن اختيار التلفزيون السوري كهدف للارهاب اختيار ساذج، لأن أي تنظيم ارهابي حتى لو كان مخططوه من خريجي مشافي الأمراض العقلية، لايستهدف التخريب في مكان مخرب أصلاً كالتلفزيون السوري، ولا يمكن لأسامة بن لادن وأبو مصعب الزرقاوي وكارلوس، ومنظمات الألوية الحمراء الايطالية، وايتا الاسبانية، وأيلول الأسود الفلسطينية، والجيش الجمهوري الايرلندي، لو اجتمعوا معاً، وواتفقوا على التخطيط لتنفيذ عملية تخريبية في التلفزيون السوري، لايمكن لهم أن يحدثوا تخريباً يصل إلى نصف التخريب، الذي نفذته الادارات المتعاقبة للتلفزيون السوري فيه!

الاحتمال الثالث والأخير لتفسير هذه العملية الارهابية، التي استهدفت مبنى التلفزيون السوري، أن يكون أحد أجهزة الأمن في سورية، قد نظر ملياً إلى الظروف الحرجة التي تمر بها أمتنا العربية، وفكر طويلاً في الهجمة الامبريالية الشرسة، التي تتعرض لها المواقف السورية الصامدة، وصمم أن يرد على الاتهامات الظالمة بدعم الارهاب، التي توصم بها السياسة السورية

المبدئية والثابته، ورأى أن الطريقة المثلى للرد هي تقديم مثال عملي، على أن سورية أيضاً تتعرض للارهاب، فقرر اختراع عملية الهجوم الارهابي على مبنى التلفزيون السوري، لكنه بدلاً من أن يستعين بكتب عن عمليات الموساد وال CIA والقاعدة، للاستئناس بها في التخطيط لعمليته، اعتمد في رسم خطته على مرجع واحد ووحيد، هو كتاب الشيف رمزي في فن الطبخ، فكل المعلومات التي بثها التلفزيون السوري من كون عناصر المجموعة الارهابية، ينتمون إلى طريقة صوفية تحولت إلى جماعة تكفيرية، إلى الأسلحة الأمريكية التي وجدت بحوزتهم، إلى الأقراص المدمجة التي تحوي أناشيد وخطباً دينية والتي عثر عليها معهم، إلى تصريح المصدر السوري، بأن الارهابيين حصلوا على سلاحهم من دولة مجاورة ، توحي لمتلقيها بأنه يقرأ صفحة المقادير المناسبة، لاعداد طبق إرهاب بالكاري مع الشطة الحارة والفلفل الأسود، أكثر من إيحائها له بأنه يتابع تفاصيل متعلقة بعملية إرهابية، ورواية التلفزيون السوري عن مجريات واقعة هجوم الارهابيين على مبناه، تجعل المتلقي يشعر بأن مذيع نشرة الأخبار السورية، يقرأ صفحة طريقة الطهو في كتاب فن الطبخ، وليس خبراً عن اشتباك مسلح، ولم يكن ينقص خبر التلفزيون السوري عن العملية الارهابية التي استهدفت مبناه، إلاّ أن ينهيه المذيع بقوله: بالهنا والشفا، لتصبح نشرة الأخبار السورية نموذجاً لبرنامج كامل متكامل عن فن الطبخ، لو شارك به التلفزيون السوري في مهرجان القاهرة التلفزيوني القادم لحصد بالتأكيد جائزة ذهبية!

أي احتمال آخر غير الاحتمات الثلاثة الذين ذكرتهم، لتفسير الهجوم الارهابي على مبنى التلفزيون السوري قبل أيام، يخيّل لصاحبه أنه قد يقنع

أحداً بأن ماجرى خلف مبنى التلفزيون السوري عملية ارهابية حقيقية، لن أضيع وقتي بمناقشته، لأن أي طفل يلعب البلي ستيشن أو يشاهد حلقات من المسلسل الكرتوني «ساسوكي»، كفيل بالرد عليه!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 12/ 6/ 2006

ابتكار ينفرد به تلفزيون «الجديد» اللبناني:
تحويل نشرة الأخبار إلى فيلم رعب

لكل محطة تلفزيونية في لبنان سياستها الواضحة، تظهر في نشرات أخبارها ولاتخفيها برامجها الحوارية السياسية، فمحطة المستقبل تحولت منذ أكثر من عام إلى محطة من محطات الهنود الحمر، باستثناء وحيد هو أن مذيعيها لايضعون الريش حول رؤوسهم، ولايدهنون وجوههم بالأصباغ الملونة، وماعدا ذلك فكل برامج المستقبل تدق الطبول، وتنفخ الأبواق، معلنة عن حفلة شواء قادمة للنظام السوري، وتطلق الصرخات والولولات، مع قرب صدور كل تقريرجديد للجنة التحقيق الدولية في اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، معلنة أن الفريسة تكاد تقع في الفخ، وماهي إلا أيام لتقلّب على النار، ودقائق من بعدها لتصبح في الفم، بينما تلتزم محطة المنار بدور الوكيل الشرعي لسماحة التلفزيون الايراني قدس الله سرّه، فمنذ انتخاب الرئيس أحمدي نجاد في ايران انقلب حال المنار، ولم تعد مشاهدة برامجها كافية لفهم سياستها، وأصبح المشاهد بحاجة لقراءة آخر تصريحات الرئيس الايراني، ومن ثم عليه أن يتبعها بسماع أحدث تلطيفات وتفسيرات الناطق باسم الحكومة الايرانية لتصريحات أحمدي نجاد، قبل أن يبدأ بمشاهدة أي من برامج المنار، ليستطيع فهم آخر توجهاتها السياسية، أما سياسة محطة الـ LBCI فتلخصها ابتسامة مارسيل غانم في برنامجه «كلام الناس»، السعيدة والشامتة بمعركة تلفزيون «المستقبل» وتياره مع النظام في سوريا، كما لو أنه يردد المثل القائل: بيد عمرو لا بيدي. وإذا كانت سياسة هذه المحطات واضحة، وأسبابها

مفهومة، فإن من غير المفهوم وغير الواضح أن تبني محطة تلفزيونية وجودها وسياستها على الجكر، مثلما يفعل تلفزيون الجديد أو الـ NEW TV !!

أول مايشعر به مشاهد نشرات أخبار محطة الـ NEW TV، هو أن التدريب الذين تلقاه مذيعوها قبل ظهورهم على الشاشة، لم يكن في فنون النطق الصحيح والالقاء، وعض اللسان عند لفظ الأحرف اللثوية، والتفريق بين الذال والزال، وبين الثاء والسين، بل كان في فنون العض والتنتيف والقضم والالتهام والافتراس، وأن الدورة التي خضعوا لها قبل اعتمادهم كمذيعين، ليست في كيفية قراءة الخبر، والالتزام بالفواصل والنقاط واشارات العجب والاستفهام، وانما دورة خاصة في الصاعقة، تعلّم فصل رؤوس الأفاعي عن أجسادها باستخدام الأسنان والأضراس، ومن قام بتدريبهم لابد وأنه شدد عليهم بإظهار الأسنان، باعتبارها أنياباً قاطعة، ولهذا السبب بالذات يصر مذيعو نشرات أخبار تلفزيون الـ NEW TV على شد شفاههم، حتى تظهر كامل أسنانهم مع جزء من اللثة، إلى الدرجة التي يخيل فيها لمشاهدهم أحياناً، بأن مايراه اعلاناً لمعجون أسنان، أو درساً في المحافظة على اللثة لا نشرة أخبار، ولاشك أن المثال الذي عرضه أمامهم من قام بتدريبهم، كنموذج للشخصية التي يجب أن يلبسوها خلال قراءة النشرة، هو شخصية أم ودود الثأرية بغروتسك كوميدي، التي أدتها الفنانة السورية سامية جزائري في فيلم دريد لحام ''كفرون''، وهذا مايفسر شعور المشاهد برغبة في الابتسام خلال مشاهدته لنشرة أخبار هذه المحطة، وخشيته أحياناً من أن يطق عرق أو ينفجر شريان في رقبة المذيع أو المذيعة، من فرط الجدية والتوتر الذي يظهر عليهما، ومما لاشك فيه أن المذيع يخضع قبل ظهوره على الشاشة

لتقديم نشرة الأخبار، لعملية توتير روحي وتعذيب نفسي شديدتين، كأن يقال له إذا ماكان هناك خبر عن النائب اللبناني وليد جنبلاط في النشرة، تخيل وأنت تقرأ الخبر أن وليد جنبلاط اقتحم بيتك وهو يمسك رشاشاً أتوماتيكياً، ووجد أباك في غرفة الجلوس فأطلق عليه النار، ثم دخل إلى غرفة النوم فقتل اخوتك، وبعدها توجه نحو المطبخ وأطلق النار على أمك، أو توضع المذيعة في غرفة مظلمة مع موسيقا جنائزية، ويقال لها قبل أن تخرج لتقف أمام الكاميرا، وتقرأ خبراً عن زعيم الأكثرية النيابية سعد الحريري، تصوري وأنت تقرأين الخبربأن سعد الحريري يضع سكيناً على عنقك، قاومي، ودافعي عن نفسك، واصرخي، ثم يطلق المذيع والمذيعة وهما محتقنين طالبي ثأر، وشاربي دم، لقراءة نشرة الأخبار، فيرى المشاهد أمامه تمثيلاً واقعياً، لعملية افتراس أجساد حية على الشاشة بدلاً من نشرة أخبار، ويخيل لي أن ديكور غرفة إعداد الأخبار في الـ NEW TV، صمم على شكل مشرحة أو مسلخ، أو غرفة عمليات جراحية في مشفى قطاع عام!

ما تقصر عنه الـ NEW TV في نشرات أخبارها، تستكمله ماريا معلوف في برنامجها بلا رقيب، فأي متابعة لاعلان المحطة عن حلقة جديدة من البرنامج، تشعر مشاهده، كما لو أنه تلقى استدعاء لمراجعة فرع مخابرات، أما مشاهدة البرنامج نفسه فتحتاج إلى مشاهدين مازوشيين يتلذذون بتعذيب ذواتهم، وهم يتابعون سادية أداء ماريا معلوف، التي تقدم برنامجها باعتبارها مناضلة لا مذيعة، متنقلة من تلبّس شخصية خولة بنت الأزور، إلى تمثل شخصية جميلة بوحريد، ومن فرط ولهها بالمقاومة ودفاعها عن بقاء سلاحها، وإصرارها على فتح كل الجبهات مع العدو الصهيوني،

الذي يتناقض مع شكل مكياجها الصارخ الذي يصلح لتقديم السوبر ستار، أو حفلات البرايم النهائية لستار أكاديمي، أكثر مما يصلح لبرنامج سياسي حواري، يخطر على بال مشاهدها أن يسأل عن أي سلاح مقاومة تتحدث ماريا معلوف؟ عن المقاومة بالمسكرة أم بالسيشوار!!

وأي جبهة تريد ماريا معلوف أن تبقى مفتوحة؟ هل هي جبهة الكوافير النسائي الذي وصلت منها إلى الاستديو مباشرة؟ أم جبهة شاطئ السان جورج الذي قد تغادر الاستديو إليه مباشرة، للقيام بعملية برونزاج انتحارية .. وبين هاتين الجبهتين التي وصلت منها والتي قد تذهب إليها، تقضي ماريا معلوف وقت البرنامج بتوجيه تهم التخوين، أكثر مما تطرح الأسئلة، وتنتظر من ضيوفها المزاودة عليها بتوزيع صفات العمالة، أكثر من انتظارها لاجاباتهم، وربما لهذا السبب بالذات اعتبر التلفزيون السوري أنه معني بهذا البرنامج باعتباره يمثل سياسته، فتبنى مقدمته ماريا معلوف، التي غدت تسمى رسمياً في سورية (الزميلة الاعلامية)، وخصها بإدارة عدة ندوات على شاشته، ووصلت ثقته بها إلى الحد الذي اختارها في إحدى الأمسيات لتقديم نشرة أخبار الثامنة والنصف الرئيسية لديه، وأفردت لها جريدة الثورة السورية مساحة لكتاباتها، واعتمدت باعتبارها المنفذ الأخير الذي لايزال مفتوحاً، للخط العسكري المغلق عند نقطة المصنع الحدودية اللبنانية.

لمجمل هذه الأسباب تعتبر متابعة محطة الـ NEW TV مميته، للذين يعانون من أمراض القلب وتصلب الشرايين وارتفاع الضغط، وخطرة على الصحة النفسية لأنها تصيب بالبارانويا وتسبب الفصام، ولو سألت ماهو هدف المحطة من كل ماتقدمه من برامج اخبارية أو سياسية، تعتمد على

الجكر، لأجبت دون تردد بأن الـ NEW TV حزينة فعلاً لاستشهاد الرئيس رفيق الحريري، لكنها حزينة أكثر على أن مجموعة 14 آذار لم تكن معه في موكبه، فأطنان المتفجرات الاعلامية التي تقوم بزرعها بانتظام حول هذه المجموعة، لا تقل أبداً خطورة عن التفجير الذي تعرض له موكب الرئيس الحريري!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 19/ 6/ 2006

حين يتحوَّل فيصل القاسم من إعلامي إلى مناضل سياسي ويفتح جبهة على حسابه الخاص

كل الظروف العربية منذ الاحتلال الأمريكي للعراق، وحتى الهجوم الاسرائيلي على لبنان تخدم الدكتور فيصل القاسم، ولولا خشيتي من أن اتهم بأني من أنصار نظرية المؤامرة، لقلت إن الراعي الحقيقي لبرنامج «الاتجاه المعاكس» هو جيش الولايات المتحدة الأمريكية، مناصفة مع جيش الدفاع الاسرائيلي، كونهما يمدان البرنامج بالمواضيع الحارة والحساسة بالتناوب كل أسبوع، بحيث أصبح المشاهد يعرف موضوع الحلقة القادمة من البرنامج، قبل ظهور إعلانها، بتذكُّره لموضوع الحلقة السابقة، فإذا كانت الماضية عن العراق، فلا بد أن تكون التالية عن فلسطين، والعكس بالعكس، ولو قرر هذان الجيشان ايقاف برنامج «الاتجاه المعاكس»، فباستطاعتهما فعل ذلك ببساطة متناهية، ولن يكونا بحاجة لأي ضغط على حكومة قطر، ولن يلزمهما وضع خطط عسكرية لقصف قناة «الجزيرة»، وكل ماعليهما فعله، هو إيقاف أعمالهما العدوانية ليتوقف البرنامج فوراً.

ورغبة مني في عدم الوقوع في شرك المبالغة، لن أقول بأن المستفيد الأكبر من احتلال العراق، هو الدكتور فيصل القاسم، بعد أن تحول ثلاثة أرباع ضيوفه في البرنامج إلى عراقيين، بحيث لم يبقَ عراقي مسيحي أو يزيدي أو صابئي أو مسلم، سني أو شيعي، كردي أو عربي أو تركماني، إلاّ وظهر في «الاتجاه المعاكس»، وأستغرب فعلاً من أن الدكتور القاسم لم يدحض الشائعات التي ترددت حول علاقة ما، ربطته بنظام الرئيس

العراقي المخلوع صدام حسين، ولم يدافع عن نفسه – ولديه مثل هذا الدليل الذي لا يرد – ويخرج ليعلن على الملأ بأنه المستفيد الأول في الدنيا من انهيار نظام صدام حسين، لكني أظن أن الدكتور القاسم كان يتمنى بالتأكيد لو أن الأمريكان احتلوا مصر بدلاً من العراق، لأنه بوجود سبعين مليون نسمة لن يضطر حينها، لإعادة استضافة نفس الضيوف عدة مرات، كما يفعل مع العراقيين الذين مرّوا جميعاً في برنامجه.

يعرف الدكتور فيصل القاسم بلا شك، أن برنامجه مشاهد على نطاق واسع، لكن أسباب مشاهدته في رأيي، تختلف عن أسباب مشاهدته من وجهة نظره بالتأكيد، فأنا أظن أن السبب الرئيسي الذي يدفع المشاهدين العرب لمتابعة التكرار المملّ لبعض الموضوعات، لا يعود لكون هؤلاء المشاهدين لم يفهموها بسبب تعالي الصراخ والردح وشدّ الشعر وتشريط الثياب بين ضيفي البرنامج، ولذلك يقبلون على مشاهدة الحلقات التالية، عسى أن يفهموا شيئاً مما يحدث في المشاجرة العلنية، التي تعقد مساء كل ثلاثاء على شاشة قناة الجزيرة –كما قد يظن الدكتور القاسم – بل لأن مشاهدة «الاتجاه المعاكس»، تكاد تشبه طقس التطهر في التراجيديا الاغريقية، فالعرب الذين لم يعثروا منذ ثلاثين سنه على قائد يستطيع أن يحقق لهم الانتصارات، أو يعيد لهم ولو سنتيمتراً واحداً من أراضيهم المحتلة، أو يمنحهم حق التفكير في الحرية، حتى وهم تحت الدش دون خوف، وجدوا في الواقع التلفزيوني الافتراضي بديلاً مناسباً ومريحاً يعوضهم عن خيبتهم السوداء في واقعهم الحقيقي، ويمكنهم من النشوة بحلم الانتصارات، ويعدهم بأمل عودة كل الأراضي العربية المحتلة وصولاً إلى الأندلس، ويمن عليهم بساعة نعيم من الحرية التلفزيونية.

ومن هنا تأتي شعبية البرنامج الذي يدغدغ عواطف شعب يائس بائس، غارق في الذل والمهانة والطغيان، حيث يجد فيه المشاهد العربي فرصة مريحة – خاصة وأنه يصله ديليفري إلى المنزل مجاناً – توفر عليه تكبُّد عناء الخروج في الطقس الحار أو البارد، للمشاركة بأي مظاهرة حماسية عربية، سواء كانت للتضامن مع فلسطين أو لنصرة العراق، أو لشجب الهمجية الاسرائيلية أو للتنديد بالسياسة الأمريكية، فما عليه إلاّ أن يسترخي أمام الشاشة وبالشورت لو أراد، ليعيش نفس الحماس والانفعال، وارتفاع ضغط الدم وتسارع نبضات القلب، التي يحسها المشارك الحي في أي من تلك التظاهرات، بل ربما وبسبب من براعة الدكتور القاسم في رفع مستوى انفعالاته إلى حدودها القصوى (والتي تصلح لتقديم إعلان ترويجي لمشروب الطاقة Red Pull، أكثر مما تصلح لإدارة حوار بين شخصين راشدين يتمتعان بكامل قواهما العقلية)، يمكن أن يصل الايهام التلفزيوني بالمشاهد إلى حد الاعتقاد، بأنه ليس مجرد مشارك عادي يمشي على أطراف المظاهرة أو في مؤخرتها، وإنما في مقدمتها وملاصقاً لهتّيفها، ولهذا السبب بالذات تبدو شعبية الدكتور فيصل القاسم، أقرب إلى شعبية هتيف المظاهرات، منها إلى نجومية مقدم البرامج الحوارية السياسية.

مشكلة برنامج «الاتجاه المعاكس» أكثر من واحدة، فالساعة التي كان يتم نقاش وجهتي نظر فيها بقضايا فكرية وسياسية بألوان مختلفة، وتمس خلالها مسائل جوهرية حول أوضاع الحريات والديمقراطية في الدول العربية، أو تسلط فيها الأضواء على الاتجاهات التي تتحكم بالفكر العربي اليوم، وحتى مناقشة قضايا فنية مثل الدراما أو المهرجانات، تحولت منذ احتلال العراق إلى قضية سياسية بلون واحد، تعاد كل مرة بمقاربة مختلفة، وكل

مشاهديها يعرفون منذ بداية الحلقة أن البرنامج سيصل في نهايته، إلى اعتبار الاحتلال الأمريكي كلب ابن كلب، والعدو الاسرائيلي ابن ستين كلب، وكل هدفهم من متابعتها هو إعادة الطقوس الكربلائية في جلد الذات وتدمية الأجساد.

ومشكلته أيضاً أن خطوطه الحمراء، سواء الشخصية أو تلك التي تعني السياسة القطرية، هي التي أصبحت تتحكم بالبرنامج، وأي ادعاء للسقف المفتوح تجعل أبسط مشاهد عادي يتساءل: وهل أبو غريب هو السجن الوحيد في العالم العربي؟ ولماذا غابت مصر وسورية وباقي الدول العربية عن موضوعات البرنامج؟ ومن غير المنطقي أن يكون شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، مبرراً لممارسة نوع من الحرية الانتقائية، بحيث تكون مع الحرية في بلد، وتتغاضى عن انتهاكاتها في بلد آخر.

ومشكلته الثالثة أن اختيار ضيفي البرنامج يتم على أساس أن يكون الأول الذي يقف في صفه الدكتور فيصل القاسم عادةً، من حزب (خذوهم بالصوت أحسن مايغلبوكم)، والثاني من فريق (كلما ضعفت حجتك علا صوتك)، وبمثل هذين الضيفين يتحول الحوار إلى مقابلة شخصية مع صاحب الصوت العالي، فلا يمكن أن يكون نجيب محفوظ مثلاً رابحاً في مواجهة وئام وهاب، وسيخسر أدونيس فيما لو كان مواجهه على سبيل المثال ناصر قنديل، وهذا ما يعتبر قاعدةً لـ«الاتجاه المعاكس».

أما مشكلة الدكتور فيصل القاسم كمقدِّم للبرنامج، فهي في اعتقاده بأنه يفتح جبهة أسبوعية على حسابه الخاص، وهو مقبول فيما لو صدر عن تنظيم أو حزب سياسي أو مناضل أيديولوجي، لا عن إعلامي، وهي أيضاً مشكلة ممثّل قدَّم دوراً في يوم ما وسمع تصفيق الجمهور لأدائه،

فاختار أن يكرره لباقي عمره، دون أن يشعر بتغير الزمن والمزاج والقبول وحتى الموضة، ولهذا لم يعد لديه أي عمل في البرنامج، سوى التربيت على يد الضيف الأول طالباً فرصة للكلام، ورجاء الضيف الثاني بمنحه دقيقة ليتحدث، فتصبح إدارته للندوة أقرب إلى عرض القرداتي، الذي يطلب من قرده أن يقوم بتمثيل عجين الفلاحة، ولكن القرد للأسف لا يطيع دائماً!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 7/ 8/ 2006

جلسة تعذيب بالفضائية الليبية الاشتراكية العظمى

لا أظن أن الفضائية الليبية تتبع إدارياً وبرامجياً لهيئة إعلامية مثل وزارة الإعلام الكبرى، أو مديرية التلفزيون العظمى في الجماهيرية الليبية الاشتراكية العظمى، وأكاد أكون على يقين بأن الهيئة المشرفة عليها، وتضع خطتها البرامجية هي إدارة المخابرات اللامحدودة، أو مديرية السجون اللامتناهية، وأن المؤهلات المطلوبة للمشرفين الفنيين على البرامج، ليست (دبلوم) في الإعلام، أو (ماجستير) في الدراما، بل دورات متقدمة في فنون التعذيب، وشهادات خبرة في اللسع بالكهرباء أو نزع الأظافر، وأن البرامج التي تقدم على شاشة الفضائية الليبية تسمى في كواليس القناة، وبين صانعيها، جلسات تعذيب، وأن المشاهد لبرامجها يتداول اسمه على ألسنتهم باعتباره متهماً أو مشبوهاً أو موقوفاً، في حين يسمى في قواميس منظمات مناهضة التعذيب وحقوق الانسان ضحيةً، ولذلك كلّه فالكتابة عن الفضائية الليبية أو أي من برامجها، يجب أن تأخذ صيغة الشكوى لا صيغة المقال، وتقدّم إلى منظمات «هيومان رايتس» أو العفو أو العدل الدولية، لا إلى جريدة أو مجلة، ومن حق كل مشاهد قاده حظه العاثر، أو سوء تقديره وتصرّفه، أو غضب والديه عليه وعلى ذريته، للضغط على رقم الفضائية الليبية في جهاز التحكم بين يديه، أن يحصل على تعويض عن الضرر، الذي تعرض له أسوةً بضحايا طائرة لوكربي أو مقهى لابيل!
أظن أن التعذيب الذي ألحقته بي ساعتي المشاهدة للعمل نصف الوثائقي، وربع الدرامي، وثلث التاريخي، وخمس الفنتازي «رحلة 4000 يوم من العمل السري»، الذي يروي قصة التحضير للثورة الليبية، أضنى بكثير

من العذاب الذي تعرض له قائد هذه الثورة، في الأربعة آلاف يوم التي ناضل فيها بمفرده -كما يظهر ويؤكد الفيلم - لدحر الاستعمار الايطالي، والانقلاب على الملك السنوسي، مما ذكرني بالممثل السوري أيمن زيدان، في المسلسلات التي تناولت فترة الانتداب الفرنسي لسورية، والتي قتل فيها بمفرده من الجنود الفرنسيين، أكثر من عدد سكان فرنسا كلها، ولفرط بطولته على شاشات التلفزيون توهم بعض تلامذة المدارس السوريين، أن أيمن زيدان أهم الثوار السوريين ضد الانتداب الفرنسي، مما جعلهم يرسبون في امتحاناتهم التاريخ، حين ذكروا اسمه جواباً عن سؤال: من هو أشهر ثوار سورية؟ ويبدو أن صناع فيلم «رحلة 4000 يوم من العمل السري» وجدوا أن ثورية أيمن زيدان أقرب إلى ثورتهم وقائدها، من أرنستو تشي غيفارا وسيمون دي بوليفار وروبسبير مجتمعين، فاستلهموها لتصوير تجربة قائد ثورتهم، الذي رغم أنه قطع الفيافي، واجتمع برجال القبائل وصيادي الأسماك، لم يكن يسانده في التحضير للثورة سوى سيارة الفوكس فاغن القديمة موديل السلحفاة، والتي لولا وجودها -كما يظهر من دورها الفاعل في الثورة بشهادة الفيلم- ماكانت لتقوم هذه الثورة أساساً، باعتبارها تحملت العبء الأكبر من أعباء الثورة في صبرها على سائقها، كل فترة الثورة والفيلم، ولو أن أدولف هتلر لم يأمر باختراعها لكان تاريخ الفاتح من سبتمبر لن يعني لأحد، أكثر من كونه يوم استلام الراتب بالنسبة للموظفين لا أكثر، ولكثرة ظهورها في الفيلم شعرت بأنني أشاهد فيلماً دعائياً عن ميزات سيارة الفوكس فاغن، وقوة تحملها لا عن التخطيط لثورة، وبصراحة فإن ماجعلني أتحمل الأذى والتعذيب بمشاهدة الفضائية الليبية، هو وجود سيارة الفوكس فاغن في الفيلم، لأنها ذكرتني

بشقيقتها التي رافقتني لأكثر من ثلاثة سنوات، ولو كنت أعلم حينها بأن الفوكس فاغن، هي أحد العناصر الرئيسية التي قامت بالتحضير والتخطيط والتنفيذ للثورة الليبية، لما فوت على نفسي الفرصة بأن أصبح قائد ثورة!

وباستثناء قصة سيارة الفوكس فاغن، لم أستطع أن أفهم من شبه التعليق الذي رافق الفيلم، وبعض الحوار المبتور الذي مرّ فيه، إلا اسم قائد الثورة وهو يتكرر، إلى الدرجة التي شعرت فيها بأن الفضائية الليبية ستفرض على مشاهديها في نهاية الفيلم الاجابة على سؤال إجباري، عن عدد المرات التي ذكر فيها اسم قائد الثورة، وهو من الصعوبة بحيث يصبح وقوف المشاهد أمام المرآة، لاحصاء عدد شعر رأسه أسهل من السهل، لسببين: الأول أنه سيعثر في مايعرفه من أرقام على عدد محدد لشعر الرأس، وثانياً لأنه لن يحتاج إلى عمره كلّه لعد شعر رأسه، بينما سيدخل منطقة مجهولة بالنسبة إليه في حقول الأرقام، ولن يكفيه عمره كله لمعرفة العدد الحقيقي لاسم قائد الثورة، الذي تردد في الفيلم، والذي باستثنائه يبدو التعليق والحوار في الفيلم غامضاً ومزعجاً، ولايمكن تفسيره، لأنه أقرب إلى صوت مكيف هواء من قطعة واحدة، بعد عشر سنوات من الاستعمال اليومي، في بلد يقع على خط الاستواء!

أما أقسى وأمرّ وسائل التعذيب التي مارستها الفضائية الليبية على مشاهدها، في فيلمها «رحلة 4000 يوم من العمل السري»، فهي محاولة الربط بين حركة الضباط الأحرار في مصر، وثورة الضابط الحر في ليبيا، باعتبار الثانية ثورة مستنسخة عن رحم الأولى، بطريقة طفل الأنابيب، وباعتبار أنهما مصنوعتان من نفس المواد الأولية، من دون ملاحظة الفارق الهام بينهما، وهو الفارق الذي يشبه بين مايدخل إلى الجسم البشري،

ومايخرج منه أيضاً، رغم أن المادة الأولية واحدة، وهو نفس الفارق بين فيلم «ناصر 56» وفيلم «رحلة 4000 يوم من العمل السري»، حيث يبدو أن الأول هو مرجعية الثاني، رغم أن مايجمعهما فقط هو استخدام اللونين الأبيض والأسود لاأكثر.

وإذا كانت هناك من نصيحة أقدمها للقارئ بعد أن خرجت من جلسة التعذيب بالفضائية الليبية بأقل الخسائر، فهي قراءة مايتوفر من كتب في الأسواق حول أهوال عذاب القبر، ثم تحضير نفسه لما هو أمر مما قرأه، فيما لو فكر بمشاهدة الفضائية الليبية!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 11/ 9/ 2006

بعد ما يزيد عن ثلاثين عاماً
من تعيين وتمديد وتجديد وانتخاب صابر فلحوط:
رئيس جديد لاتحاد الصحافيين السوريين

لا أتصور نفسي أدخل مقر اتحاد الصحافيين السوريين بدمشق في يوم من الأيام، من دون أن أجد الدكتور صابر فلحوط خلف طاولة رئاسته، فمنذ أن وعيت على الدنيا، والدكتور صابر فلحوط رئيس اتحاد الصحافيين في سورية، وعندما عملت في الصحافة السورية، كان الدكتور صابر فلحوط لا يزال رئيساً لاتحاد الصحافيين السوريين، وبقي الدكتور صابر فلحوط في عهود التعيين، وسيناريوهات الانتخابات رئيساً لاتحاد الصحافيين، تغيّر الرؤساء، وتبدلت الوزارات، وظهرت وجوه جديدة في القيادات القطرية والقومية، وأقيل من أقيل، وتقاعد من تقاعد، ولاقى وجه ربه من لاقى، وتشتت الاتحاد السوفييتي إلى دول، واختفت المنظومة الاشتراكية، وفشلت التجربة الشيوعية، وقسم أسامة بن لادن العالم إلى ما قبل وما بعد 11 أيلول، وغزت أمريكا أفغانستان والعراق، واخترع البث الفضائي والانترنيت، وظهر مرضا الايدز والسرطان، واكتشف البشر الخريطة الجينية، وحدثت ثورات وانقلابات واكتشافات، لكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير، ولم يتزحزح من مكانه، أو تزيد شعرة شائبة في رأسه، هو رئيس اتحاد الصحافيين في سورية الدكتور صابر فلحوط، الذي بقي في مكانه دلالة على الثبات، وعلامة على أن من الممكن إيقاف الزمن، ورمزاً يختصر حالة الإعلام السوري كلها، ولذلك أعتبر ظهور رئيس جديد لاتحاد الصحافيين السوريين حدثاً، ليس بالنسبة للصحافيين في سورية

نفسها، بل لكل الأحياء من السوريين، الذين ولدوا وعاشوا في عصر الدكتور صابر فلحوط، وسيشعرون أنهم بغياب وجهه فقدوا جزئاً من حياتهم.

لست شامتاً بتغيير الدكتور صابر فلحوط، بل بالعكس ربما تكون عواطفي أقرب إلى الأسى لغيابه عن رئاسة اتحاد صحافيي سورية، ربما لأن السجناء يتعودون بمرور الوقت على وجود سجانيهم، ويتآلفون معهم إلى الحد الذين يشعرون فيه بفقدانهم عند غيابهم، وقد أكون ظالماً في توصيف العلاقة بين الصحافيين السوريين والدكتور صابر فلحوط، حين أشبهها بعلاقة السجين والسجّان، لكن حتى لو مارس الدكتور فلحوط دور السجان، خلال رئاسته لاتحاد الصحفيين لتاريخ يتجاوز أكثر من نصف سنوات عمره، فقد كان سجاناً لطيفاً، من الذين يعرفون أنهم مهما فعلوا لن يحصلوا على العنب، أو يقتلوا الناطور في موضوع الإعلام السوري، ولمعرفته بأنه مجرد برغي صغير في آلة كبيرة، فقد قرر منذ البداية أن يحيط أسنانه بالصدأ حتى يصعب اقتلاعه من مكانه، سواء بالمفكات العادية أو الكهربائية، وبهذه الطريقة حافظ على وجوده عالقاً في خشبة الاعلام السوري واتحاد صحافييه، ولأنه كان يعرف أنه مرؤوس أي رجل يجلس على كرسي وزير الإعلام، فقد كان يخرج مع الست ويدخل مع الجارية، ولديه عدة جمل يزاود بها على المزاودين، حين يستضاف على شاشات الفضائيات، ويعيد ترتيبها في المقالات التي يكتبها على طريقة شهادات حسن السلوك، ويستخدم صوته الجهوري ومهارته الخطابية، ليقنع سامعيه في المؤتمرات بجدتها وعدم تكرارها.

أما في علاقته بالصحافيين ومشاكلهم، فطالما طبق المثل الشعبي القائل

(لاتشكيلي لابكيلك)، فحين كان الصحافي يأتيه حاملاً مظلمته، يجد أمامه صدراً حنوناً يضمه إليه، ويداً حانيةً تربت على كتفه، ورئيس اتحاد صحفيين مظلوم أكثر منه ينوح لنواحه، ويبكي لبكائه، ويسرّ له بهمومه، إلى الدرجة التي تشعر الصحافي في نهاية الجلسة، بأن عليه أن ينهض ليضم رئيس اتحاده إلى صدره، ويربت على كتفه، وبأن مظلمته ليست أكثر من نقطه في بحر مصيبة رئيس اتحاده، وليغادر مبنى اتحاد الصحافيين راضياً مرضياً، شاعراً بالطمأنينة ومن دون أن يحظى ولو بمجرد وعد لمعالجة مظلمته.

ولأني كنت أعرف مواهب الدكتور فلحوط التمثيلية، ومهاراته الأكروباتية في التنقل من التراجيدي إلى الكوميدي، بخفة متدرب على المشي فوق حبل، وحذقه في تقديم اللون التراجيكوميدي، دون أن يستطيع متابعه الفصل بينهما، وإدراك ما إذا كانت هذه الجملة تنتمي إلى القهقهة، وما إذا كانت الأخرى تنتمي إلى الدمعة، فقد كنت مصراً دائماً، وفي كل مشكلة حريات تعترض عملي الصحافي، على أن أسمع منه موقفاً واضحاً، متجنباً الانجرار وراء أسلوبه في إلهاء محدثه بحل شبكة الكلمات المتقاطعة، التي يطلق عليها تجاوزاً اسم الدكتور صابر فلحوط كي ينسى مشكلته، التي جاء لمقابلته من أجلها، وكنت في كل جلسه معه أشعر أنني لا أخوض حواراً، وإنما ألعب مباراة بكرة الطاولة، وماعلي إلا أن أرد الكرات، ولا أزال أذكر أنه في عام 2001 أعطاني ربما لأول مرة في حياته جواباً لا ينتمي لزئبقية مواقفه، لأرد به على سؤال محققي حول سبب نشري في جريدة النهار، والتي كانت قراءتها تهمة فما بالكم بالنشر فيها، حين سألني عما إذا كنت قد قرأت توجيهاً من رئيس تحرير جريدتي،

أو من رئيس اتحاد الصحفيين يمنعني من النشر في النهار، وعندما أجبته بلا، قال لي أن بإمكاني أن أقول هذا عن لسانه لمحققي، ولا أزال أذكر وجه محققي المحتقن، وهو يسألني ثلاث مرات متتالية عما إذا كان صابر فلحوط بدون الدكتور قد قال لي ذلك، وحين كررت للمرة الثالثة النعم أقفل التحقيق في ملف النشر في النهار نهائياً معي، لكن أكثر ما أذكره لصابر فلحوط هو ماقاله في ورشة عمل أقامتها إذاعة الـ BBC عام 2004 في دمشق، وكنت أحد المشاركين فيها، ووقف الدكتور صابر فلحوط ليعيد بملء فيه خطابه التاريخي الأزلي حول الحريات، التي يتمتع بها الصحافيون السوريون، وأنه وخلال ثلاثين سنة لم يكسر قلم، أو يسجن صحفي، والتفت إليه بعد نهاية خطابه لأقول له في حضور ابراهيم حميدي مراسل جريدة الحياة في دمشق، الخارج حديثاً من السجن حينها: إما أنك يادكتور صابر لاتعتبر ابراهيم حميدي سورياً، أو لاتعتبره صحفياً حتى تقول مثل هذا الكلام أمامنا، وعندها أخرج الدكتور صابر فلحوط من جعبته قناعه الطريف، وقال لي: أنت تعرف أنني لو قلت الحقيقة لما كنت هنا، ولكانت عجلات سيارتي فارغة من الهواء، وخزانها خالٍ من البنزين، وربما يكون هذا أصدق كلام قاله الدكتور صابر فلحوط في حياته كلها!

كان من الممكن أن يفرح صحفيو سورية بإزاحة نقيبهم المزمن لو كان خلفه لديه رؤية، أو على الأقل طموح في الاعلام السوري، ولكن تعيين (للتأكيد تعيين وليس انتخاباً حسب ما أوردت صحيفة سيرياستيبس في السادس من أيلول الحالي) السيد الياس مراد، الذي تعرف شاشات الفضائيات تعابير وجهه، الأكثر شبهاً بلحاء الشجر، وخطابه المشتق من خشبها، سيحسن من صورة الدكتور صابر فلحوط، الذي كان على الأقل

بالشو الحي الذي طالما برع في تقديمه، يمنح الصحافيين السوريين متعة الضحك، حتى وإن كان على همومهم ومشاكلهم وآلامهم!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 13/ 9/ 2006

سيران إرهابي إلى السفارة الأمريكية بدمشق:
بعد نجاحه زراعياً الفضائية السورية
تستخدم الري بالتنقيط إعلامياً!!

أظن – والله أعلم – بأن إرهابيي دمشق التلفزيونيين، الذين قاموا بالهجوم على مبنى السفارة الأمريكية فيها، يعتمدون المذهب الارتجالي في الإرهاب، فعلى عكس التخطيط والتنظيم المثيرين للدهشة، الذي تميزت بهما عملية تفجير برجي التجارة العالمي في نيويورك، من حيث اختيار الهدف، واعتماد الأسلوب والسلاح المناسب للهجوم عليه، ودقة وسرية تنظيم العناصر التي نفذت العملية، تبدو عملية الخلية التلفزيونية الارهابية ضد السفارة الأمريكية في دمشق ارتجالية وعشوائية، حتى لتظن أن عناصرها كانوا في سيارتيهما، متجهين لتنفيذ سيران سلمي في بلودان أو الزبداني، والجلوس على ضفة بردى، وطبخ المجدرة وشرب الشاي، ثم خطر لهم في آخر لحظة أن يغيروا مكان سيرانهم، فيذهبوا إلى الجنة، بدلاً من أحد مصايف دمشق، ويجلسوا على ضفة نهر الكوثر، بدلاً من ضفة بردى، ولأنهم –كما أظن– كانوا بالصدفة يمرون قرب السفارة الأمريكية بدمشق، فقد اختاروها وبشكل ارتجالي هدفاً، ولأنهم أساساً كانوا ذاهبين في سيران، ولم يكونوا يقصدون القيام بعملية إرهابية، فقد كان عتادهم الذي استخدموه في عمليتهم الارتجالية من النوع الذي ينتمي إلى معدات المطبخ من قناني غاز ومدقات ثوم وأجران كبه وغيرها، أكثر مما ينتمي إلى السلاح الحقيقي، ولأن هذه الخلية الارهابية قررت ونفذت عمليتها الارهابية بشكل ارتجالي، لم يصدر أي تنظيم إرهابي عالمي أو إقليمي أو عربي أو محلي، بياناً

يتبنى العملية، ولأنه مامن تنظيم إرهابي لديه فائض في العناصر، بحيث يرسل أربعة عناصر وليس عنصرين في سيارتين مفخختين للقيام بعملية إرهابية، ففكرة السيران الذي تحول ارتجالياً إلى عملية إرهابية، أقرب إلى المنطق وأدعى للتصديق، من فكرة العملية الارهابية المنظمة والمخطط لها مسبقاً، ولأن أعضاء الخلية الارهابية -كما أظن- من محبي متابعة أعمال المخرج السوري مأمون البني، فقد قاموا بتنفيذ عمليتهم مستلهمين أسلوبه الاخراجي، لمشاهد المعارك في مسلسله «سيف بن ذي يزن»، من حيث رداءة الأداء، وبدائية الاخراج، وفقر الخيال، وبخل الانتاج، وأخطاء الميزانسين، وهو الشيء الأكثر وضوحاً في هذه العملية الارهابية!

فكل التفاصيل الأخرى للعملية، وللخلية التي قامت بها، وللتنظيم الذي تتبع له، وللهدف الحقيقي منها، تحتمل التأكيد أو النفي كما ظهر في كل كلام المحللين السياسيين، الذين لعبوا لعبة الطرة والنقش (الملك والكتابة بلهجة إخواننا المصريين)، لتفسير العملية على كل شاشات القنوات الفضائية العربية، وخاصة بعد مقتل ثلاثة من الأربعة الذين قاموا بتنفيذ العملية أثناء حدوثها، ووفاة الرابع في المشفى قبل أن يدلي بأي اعتراف، ولذلك استخدمت كلمات مثل: أظن، والله أعلم، في اجتهادي، لتركيب سيناريو افتراضي للعملية الارهابية، والشخص الوحيد الذي استطاع الاطلاع على محاضر التحقيق التي أجراها أنكر ونكير، مع قتلى العملية الارهابية الثلاثة أثناء حدوثها، هو المحلل السياسي السوري أيمن عبد النور، وبفضل إطلاعه على اعترافات الارهابيين الثلاثة أمام أنكر ونكير، أعلن من على شاشة قناة الجزيرة -والعملية لاتزال مستمرة- بأن الارهابيين ينتمون إلى تنظيم إرهابي تكفيري، ولاخفاء مصادر معلوماته

التي تنتمي إلى العالم الآخر، برر معرفته بهوية الارهابيين الثلاثة، بصدفة تواجده في منطقة قريبة من العملية، وسماعه لهتافات الارهابيين الدينية، كما لو أنهم كانوا يقومون بمظاهرة أمام السفارة الأمريكية، وليس بعملية إرهابية تستهدفها، ولا أريد هنا أن أحاججه، لأثبت بأن أنكر ونكير سربا له محاضر تحقيقاتهما السرية مع القتلى الثلاثة، وأطلاعاه على اعترافاتهم بشكل شخصي، دوناً عن كل البشر، فأسأله عن وصفه للمجموعة الارهابية بالتكفيرية وليس بالأصولية مثلاً، وأسأله أيضاً لماذا قرر بأن المجموعة دينية (خاصة وأن سيرة اللحى الطويلة أو الجلاليب القصيرة، لم ترد في أي شهادة عن العملية، كما لم يذكر أحد بأن سيارتي الارهابيين، كانتا محجبتين باعتبار كل واحدة منهما تنتهي بتاء التأنيث)، وحجب بتأكيده على انتماء المجموعة الديني، شرف الهجوم على السفارة الأمريكية، عن أكبر عدو للامبريالية الأمريكية في العالم، المتمثل في الحزب الشيوعي السوري البكداشي (نسبة إلى زعيمه السابق المرحوم خالد بكداش، والتي حصلت زوجته على زعامتها له، كجزء من عملية حصر إرثه بعد وفاته)، والذي ينافس جبهات تنظيم القاعدة المفتوحة ضد الولايات المتحدة الأمريكية، في أفغانستان والعراق وغيرهما، بجبهته المفتوحة والصاخبة عليها عبر صفحات جريدته نضال الشعب، وهو الاحتمال أقرب للمنطق، أولاً لأن سياسة الحزب الشيوعي البكداشي تنتمي إلى الفكر التكفيري، وثانياً لأن فشل العملية تتماشى مع سيرورة تاريخ هذا الحزب، وأذكر السيد عبد النور، فيما لو فكر بمماحكتي بقصة الهتافات الدينية، بأن لحظة مواجهة الموت تجمع المؤمن والملحد بتذكر الله!

من المعيب فعلاً ماعلق به المحللون السياسيون السوريون، عبر شاشتي

الجزيرة والعربية على العملية وهي لاتزال مستمرة، والذين استخدموا أسلوب العشاق الذين يمسكون بوردة محتارين، ويحاولون عن طريق نزع أوراقها لمعرفة ما إذا كانت فتيات أحلامهم تحبهم أم لا، وهم يتحزرون عن الجهة التي ينتمي إليها أفراد المجموعة التي قامت بالعملية، ويستخدمون طريقة مكفوفي البصر في عبور شارع، في تخيلهم لسيناريو مجريات العملية، ويصلون جميعاً بطريقة من يقرأ تعميماً مكتوباً، إلى نتيجة مفادها أن سبب العملية هو السياسة الأمريكية في المنطقة، في حين خرج وزير الداخلية السوري بعد كل ماقدموه من خيوط ربطوها، وعقد حلوها، وخفايا اكتشفوها، وودع ضربوه، وفناجين قهوة بصروها، وفال فتحوه، ومندل ضربوه، ليبخعهم جميعاً، ويعلن أنه لا توجد لديه معلومات كافية عن العملية!

لكن المعيب أكثر هو استلهام الفضائية السورية لطريقة الري بالتنقيط، التي يعمل بها في المجال الزراعي إعلامياً، في متابعة الهجوم الارهابي على السفارة الأمريكية بدمشق، فبعد أكثر من ساعة على بدئه، وبعد أن سمعنا في الجزيرة والعربية قراءة أيمن عبد النور للغيب، وارتباك الدكتور ابراهيم الدراجي في تقديم إجابة على أي من الأسئلة التي وجهت له، بحجة أنه ليس خبيراً أمنياً، واستعراض الدكتور محمد حبش لمعلوماته الجغرافية عن حي السفارات في قطر والسعودية، ورد الدكتور مهدي دخل الله على ما لم يقله محمد حبش، وإصراره على تقويله إياه، وسرد للدكتور فيصل كلثوم لتاريخ صراع سورية مع الارهاب، ومنح مذيعة قناة الجزيرة لينا زهر الدين درجة الدكتوراه للصحافي فايز سارة، وإعادتها تنصيب الدكتور فايز الصايغ مديراً عاماً لمؤسسة إعلامية، والإطلالة الصوتية التقليدية التي لاغنى عنها للدكتور عماد فوزي الشعيبي، بعد كل ذلك ظهر سطر خجول على

شاشة الفضائية السورية، أشبه بطفل يتيم باكٍ بعد علقة ساخنة تلقاها من زوجة أبيه الشريرة، يقول بعد كلمة عاجل، التي كان من الأفضل استبدالها بكلمتي (صح النوم): قوات مكافحة الارهاب تجهض عملية ارهابية قامت بها مجموعة مسلحة حاولت اقتحام مقر السفارة الأمريكية بدمشق، ثم بعد دقائق ظهر سطر آخر كما لو أنه الشقيق الأصغر للطفل اليتيم الباكي، وقد تلقى هو الآخر علقة ساخنة من نفس زوجة الأب الشريرة، يقول: الارهابيون يستخدمون سيارتين إحداهما مفخخة أوقفوها أمام باب السفارة الأمريكية بهدف تفجيرها والعناصر المختصة تفكك العبوة وجهاز التوقيت، وبهذه الطريقة التنقيطية استمر ظهورالأشقاء اليتامى الباكين لهذه الأخبار على شاشة الفضائية السورية، إلى أن أطلت مذيعتها المهيب الركن كنانه حويجة، فيما سمي بثاً مباشراً من استديو الأخبار، لتعيد قراءة ماظهر على شاشة الفضائية السورية لما سمي أخباراً عاجلة، بعد أكثر من ساعة ونصف على تداولها في محطتي الجزيرة والعربية.

واليوم لو طلب مني بعد مرور أسبوع على الهجوم الإرهابي الذي استهدف السفارة الأمريكية في دمشق، أن أوضح ماجرى، بعد متابعتي لكل تغطيتها التلفزيونية في القنوات الفضائية العربية، وأولها السورية، لما استطعت أن أركب إلا جملة مترابطة، هي أنه حدثت حادثة وأطلق رصاص، ثم ضرب أحدهم المصباح الكهربائي فأظلمت الدنيا، ولم نعرف ماحدث بعدها، ولذلك فصيغ التعبير المناسبة لوصف ماحدث، لايجب أن تستغنيا عن استخدام كلما مثل: أظن، والله أعلم!!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 18/ 9/ 2006

عشر سنوات على ولادتها: جبهة «الجزيرة» التلفزيونية لتحرير أفغانستان والعراق وفلسطين وإعادة فتح الأندلس!!

لو طلب من تلميذ مدرسة ابتدائية عربية منذ عشر سنوات أن يجيب على سؤال امتحاني في مادة الجغرافيا، عن أهم قناة في الأرض العربية، فإني أجزم بأنه لن يتذكر قناة السويس، وسيقول بكل ثقة انها قناة «الجزيرة»! ولو سئل أي طالب عربي في امتحان مادة التربية القومية للمرحلة الاعدادية منذ عشر سنوات، عن الكيان الهجين الذي زرع في قلب الوطن العربي، فأكاد أكون متيقناً انه سيذكر قناة «الجزيرة» وينسى اسرائيل!

ولو كان المتنبي لايزال على قيد الحياة قبل عشر سنوات، لمنعه حياؤه من قول بيت شعره الشهير «الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم» بوجود قناة «الجزيرة»(!!)

شكّل ظهور قناة «الجزيرة» التلفزيونية قبل عشر سنوات حدثاً استثنائياً عربياً، فقد اعتبرتها الأنظمة العربية اختراقاً للجسد العربي، وجيشّت من أجل الرد عليها إعلامياً وسياسياً ودبلوماسياً، ما لم تجيشه لمواجهة اسرائيل عبر تاريخ الصراع العربي الصهيوني كله، لأنها اعتبرت أن الحرية الاعلامية للجزيرة أخطر على عروشها وكراسيها، من جيش الدفاع الاسرائيلي، وقوات المارينز الأمريكية، والحرس الثوري الايراني مجتمعين، وكانت المهمة الوحيدة لأي سفير عربي يرسل إلى قطر لتمثيل دولته، هي الجلوس أمام شاشة التلفزيون لمراقبة قناة الجزيرة، وكتابة التقارير ببرامجها إلى دولته، والشكاوي

على هذه البرامج إلى وزارة الخارجية القطرية وإدارة قناة الجزيرة، إلى الحد الذي كان يمكن فيه استبدال اسم أي سفارة عربية في قطر، بالمكتب المصري أو السوري أو التونسي أو المغربي للشكاوى على قناة الجزيرة، وكان التوجيهات الوحيدة التي يزود بهما السفراء العرب قبل سفرهم إلى الدوحة، من قبل وزارات خارجيتهم، ليس تطوير العلاقات الدبلوماسية، أو تحسين التبادل التجاري، أو إغراء رؤوس الأموال القطرية للاستثمار في بلدانهم، وإنما الحرص والتأكد من عدم وجود ريمونت كونترول لتبديل القنوات التلفزيونية في مبنى السفارة، أو منزل السفير، قد يغريهم بالانتقال لمشاهدة قناة أخرى غير الجزيرة، فينشغلون عن مهماتهم التي أرسلو لأجلها، وجهوزية حقائب سفرهم استعداداً لسحبهم عقب إذاعة أي خبر، أو بعد عرض أي برنامج، إلى الحد الذي يجعل أي سفير عربي يجيب كل صباح على تساؤل زوجته التقليدي عن نوع الطعام، الذي يفضل تناوله على الغداء، بأنه لايستطيع أن يجزم مإذا كان سيتناول غداؤه في منزله في الدوحة، أم في الطائرة التي ستعيده إلى عاصمة بلده، مسحوباً من قبل وزارة خارجيته، فذلك متوقف على أخبار وبرامج قناة الجزيرة، وكان مقدمو برامجها أمثال فيصل القاسم، أو أحمد منصور، أو سامي حداد، مؤثرين في العلاقات الدبلوماسية العربية، أكثر من عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية، وكل وزراء الخارجية العرب مجتمعين.

وعلى عكس حالة التشنج التي كانت قناة الجزيرة سبباً في جعل الحكام العرب يعيشون على أعصابهم قبل كل نشرة أخبار تبثها، أو برنامج تقدمه، كان المواطنون العرب ينظرون إلى قناة الجزيرة باعتبارها فرع مخابرات للتحقيق مع حكامهم، والتشهير بهم أمام ثلاثمائة مليون عربي،

وعلى الهواء مباشرة، وكان أي مواطن عربي يتعرض لقهر سلطوي، أو لإذلال حكومي يذهب من فوره إلى جهاز تلفزيونه ليشاهد قناة الجزيرة، التي تنتقم لكرامته المهدورة على مدار الساعة، فتعرض عملاً وثائقياً عن السجون في بلده، أو تقدم برنامجاً عن استبداد سلطته، أو تذيع خبراً عن فساد حكومته، فيشعر بالرضا، ويحمد ربه على أنه أبقاه على قيد الحياة، إلى اليوم الذي ظهرت فيه قناة الجزيرة لتنتقم ولو إعلامياً من ظالميه، ويتحسر على أقاربه الموتى، متمنياً لو عاشوا إلى يومه ليشاهدوا اقتصاصها من حكامه.

قضت قناة الجزيرة أكثر من نصف عمرها الذي تحتفل هذه الأيام بسنواته العشر، باعتبارها سنداً للمواطن العربي المقهور، وبغض النظر عن دوافعها، وأهداف مموليها، ومرامي الجهة التي تقف وراء سياستها، فقد أحدثت حالة من الحرية في الشارع العربي، إلى الحد الذي يمكن تقسيم عصر الاستبداد العربي الحديث إلى مرحلتين واضحتين، ماقبل ومابعد قناة الجزيرة، واستطاعت رغم محيط الغضب العربي عليها، أن تخلق نوعاً من العدوى ولو الخفيفة في الاعلام العربي، بحيث أصبح إعلام الأنظمة العربية الرسمي يحسب ألف حساب بوجود الجزيرة، فيما لو أراد أن يتكتم على خبر، أو يخفي حادثة، أو يتجاهل رأياً، لكن بما أن الحلو مايكملش على حد قول اخوتنا المصريين، فقد تحولت قناة الجزيرة منذ أحداث 11 أيلول، من محطة تلفزيونية إلى جبهة حرب، وعلى الرغم من مهنيتها الاعلامية إلاّ أن المتابع لبرامجها لايعوزه كثير من الذكاء، لاكتشاف أنها ألغت الفوارق بين السبق الصحفي وبين المصدر الاعلامي، بحيث تحولت إلى مايشبه الموقع الرسمي لبث رسائل الشيخ أسامة بن لادن والدكتور أيمن الظواري

الإذاعية والتلفزيونية، والجهة الأكثر احتفاء وعرضاً للرسائل المصورة عن عمليات التفجير، التي تقوم بها التنظيمات العسكرية في العراق، وغاب الخطاب المتنور الحرياتي (من الحرية)، الذي كان أهم ماجذب المشاهد العربي إلى شاشتها، لصالح خطاب ديني قومي متشدد، هو في جوهره إعادة إنتاج لخطاب الأنظمة العربية الاستبدادية، التي بنت سلطاتها وأطالت أعمارها باستخدام شعارات مقاومة الاستعمار ومحاربة الامبريالية الأمريكية وتحرير فلسطين، وكل مافعلته على أرض الواقع هو السماح لاسرائيل بالتوسع، وقمع شعوبها ونهب ثرواته، ومهما كانت التبريرات التي قد تجدها قناة الجزيرة لنفسها باعتبارها إعلاماً شعبوياً، يريد ارضاء جمهور عريض من العرب، يرى أنه يعيش مرحلة جهادية متأججه، في مواجهة أعداء يستهدفون وجوده، فإن عليها ألاّ تتجاوز الخط الفاصل الذي يحولها من قناة الجزيرة التلفزيونية الفضائية، إلى جبهة الجزيرة التلفزيونية لتحرير أفغانستان والعراق وفلسطين وإعادة فتح الأندلس، فما تفعله اليوم سواء بإرادة سياسية مقصودة، أو بدفع من الانتماءات الحزبية للعاملين فيها، يحولها إلى صياغة تلفزيونية لخطاب أحمد سعيد الاذاعي، ويجعلها إحدى القنوات التلفزيونية الرسمية العربية لا أكثر.

في بدايات إطلاق قناة الجزيرة كان الرسميون العرب يكرهونها، لكنهم ينتظرون برعب نشراتها وبرامجها، ويحرصون على مشاهدتها، أما اليوم فالكل يحبون الجزيرة، لكنهم يفوتون كثيراً من أخبارها وبرامجها، ليس لأنهم لم يعودوا يخشونها فقط، وإنما لأنهم يعتبرون أنفسهم مشاركين في تحريرها وإعدادها، وفي حال استمرارها بهذه السياسة، لن أستغرب في وقت قريب مشاهدة نشرات أخبار الجزيرة، تبدأ بأخبار الزعماء العرب

وهم يستقبلون ويودعون ضيوفهم، ويبحثون معهم الأمور الثنائية التي تهم البلدين الشقيقين!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 30/ 10/ 2006

بحكم قانون «حارة كل مين إيدو إلو»:
محسن بن بلال يحرق سفينة قناة «الشام» الفضائية

برافو... فعلها أخيراً الدكتور محسن بلال وزير الاعلام السوري، وانضم لقائمة وزراء الاعلام السوريين الذين تحسب انجازاتهم الصحافية بعدد المقالات التي شطبوها، ويشار إلى نجاحاتهم الإعلامية بعدد البرامج التي أوقفوها، ويذكر تفوقهم الإداري بعدد الصحافيين الذين منعوهم من الكتابة، أو عاقبوهم بالنقل إلى أقسام الأرشيف في صحفهم، أو نفوهم إلى مكاتب جرائدهم في المدن السورية البعيدة، ويتذكر السوريون عهودهم الوزارية، مرفقةً بأسماء الصحف التي صادروا أعدادها وسحبوا تراخيصها.

وإذا كان عدنان عمران وزير الإعلام الأسبق قد توج عهده الوزاري بسحب ترخيص «الدومري»، أول جريدة خاصة تصدر في سورية بعد حوالي أربعين عاماً من احتكار حزب البعث للصحافة، بمعية احتكاره للدولة والمجتمع، وإذا كان مهدي دخل الله وزير الإعلام السابق قد أبى أن يغادر الوزارة، من دون تحقيق انجاز يفاخر به – على الأقل – في شيخوخته، فسحب ترخيص جريدة «المبكي»، فإن الوزير بلال (الذي يتصرف، ويتحرك، ويسافر، ويصرّح، ويدبلمس – من الدبلوماسية – منذ تسلمه الوزارة وحتى اليوم، مبهوراً بقدراته كما لو أنه مخترع البيتزا، ومكتشف الملوخية، ومبتكر الكاتش أب) أحب أن يمايز نفسه عن أسلافه من وزراء الاعلام، فأقفل أول قناة تلفزيونية سورية خاصة، في اليوم الذي كانت تستعد فيه لبث أول نشرة أخبار كإعلان رسمي عن افتتاحها.

والانصاف يقتضي التماس الأعذار لثقة الوزير بلال، الزائدة عن الحد

الطبيعي بمواهبه، ولخطابه النابليوني، وتصريحاته الشمشونية، فالرجل أتى إلى كرسي الوزارة من كرسي السفارة في اسبانيا، والذي لا بد لمن يجلس عليه أن يتملكه هاجس طارق بن زياد، وتسيطر عليه صرخته الشهيرة بجيشه بعد احراقه سفنه، وتشجيه شحنة الفردوس المفقود والحلم المشتهى الأندلسي، ولأن الوزير بلال لم تكن لديه سفن ليحرقها، ولا جيش ليخطب فيه بأن العدو من أمامه والبحر من خلفه، ولا فرنجة لينتصر عليهم، ولا أندلس ليفتحها، ولأن عمله في مرحلته الاسبانية لم يتجاوز في أحسن أحواله مهنة الدليل السياحي والمرشد الإعلامي ومدير العلاقات العامة، فقد حمل معه عقدة شخصية طارق بن زياد الأندلسية إلى وزارة الاعلام السورية، ليعيد انتاجها كاريكاتورياً، مستبدلاً فرسان الجيش بأعضاء اتحاد الصحافيين، وموظفي وزارة الاعلام، وساحات المعارك بشاشات التلفزيونات، وصفحات الصحف، وإحراق السفن بإغلاق الفضائيات، وعبر هذا التفسير فقط يمكن فهم عظة الوزير بلال بجيش صحافييه في غزوة جريدة الثورة قبل أشهر، عندما طالبهم بعدم الاستخفاف بالحرية الممنوحة لهم، واستيعاب خطبته في موقعة قناة anb، بإعلانه قبل أيام أن اسرائيل تعثرت أمام حزب الله، فتصوروا ماسيحل بها إذا تحرشت بسورية، وإدراك مغزى نفيه في معركة قناة الجزيرة قبل ساعات، لوجود أي معتقل سياسي في سورية، واعتباره أن من يوصفون بمعتقلي رأي، هم أشخاص ارتكبوا أعمالاً تخالف الدستور، وإحراقه أخيراً لقناة الشام الفضائية الخاصة!

بدون أخذ هاجس البطولة، ووهم الفتوحات، وشبح طارق بن زياد بعين الاعتبار، لا يمكن لشخص يستطيع العد من الواحد إلى العشرة، أن يفهم

تصريحات وقرارات الوزير بلال، وحتى لو جار هذا الشخص على نفسه، واعتبر أن تصريحات الوزير بلال تدخل في خانة ملء الفراغ، وإثبات الوجود، والتوقيع اليومي على دفتر الدوام الوزاري، لن يعثر على مبرر فعلي واحد، يمكن اعتباره سبباً لإغلاق قناة الشام الفضائية الخاصة.

فإذا كان السبب هو عدم حصولها على ترخيص، يمنحها حق البث انطلاقاً من الأراضي السورية، وأن ترخيصها الأساسي في دبي، فمن الذي سمح لها بالبث من دمشق في الأشهر الماضية؟ أم أنها كانت طوال الفترة الماضية تبث بشكل سري، من مكان تحت الأرض، مرتدية طاقية الاخفاء، إلى أن عثرت عليها أجهزة وزارة الاعلام أخيراً، فسارعت لإغلاقها؟

أما إذا كان سبب اغلاقها، هو الخوف من احتمال بثها في يوم من الأيام للبيان رقم واحد، فأي سوري يعرف أن القطاع الوحيد السوري الذي يعمل بكامل طاقته هو القطاع الأمني، وأن المحصول السوري الوحيد الذي يفيض عن حاجة السوق المحلي، ويتم التصدير منه هو المخابرات، ويستطيع أي شخص يشكك بادعائي، أن يقوم بتجربة عملية ليتأكد من دقة كلامي، ويحصي عدد المخبرين في أي شارع يتواجد به في سورية، وما عليه إلاّ أن يصرخ شاتماً أي مسؤول في سورية، ثم يبدأ بعدها بعدّ الرجال الذين سيهجمون عليه، وعدّ الأيدي التي ستصفعه، والأرجل التي ستركله، ولذلك فالمكان الوحيد الممكن لقراءة البيان رقم واحد في سورية هو القبر!

أما إذا كانت مبرر إغلاق قناة الشام، هو منافستها للتلفزيون السوري وسرقة جمهوره، فكان على الوزير بلال، قبل إغلاقه لقناة الشام أن يصدر أوامره بإغلاق كل محلات الحلاقة في سورية، لأن أصغر حلاق في أصغر حارة سورية، يستطيع بثرثرته أن ينافس التلفزيون السوري، ويسرق جمهوره!

مشكلة الخطاب الاعلامي التبريري في سورية الأولى، أنه يتخذ القرار قبل أن يفكر بالحجة المناسبة التي سيتخذها ذريعة له، إما لأنه يظن أن السوريين يؤمنون به ايمان الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق بالرسول محمد، فيصدّقون على كل حجة يبتكرها، ويؤمّنون على كل كلمة يقولها، أو لأنه يعتقد أنه يخاطب مرضى نفسيين في مستشفى مجانين، أما مشكلته الثانية فتكمن في عدم امتحان مبرراته الساذجة، بعرضها على طلاب روضة أطفال، لامتحان قوة إقناعها قبل إعلانها، ولو كان لي رأي في ابتكار حجة مناسبة لإغلاق قناة الشام، لنصحت وزارة الإعلام السورية باستعارة كلمة «حيونة»، لازمة الفنانة صباح جزائري في مسرحية غربة، لتبرير قرارها بايقاف بث قناة الشام، لأنها أكثر اقناعاً للسوريين من الحجة الذي استخدمتها الوزارة لإيقاف بث القناة، (وهو عدم حصولها على ترخيص يمنحها حق البث انطلاقاً من الأراضي السورية) لثلاثة أسباب:

أولها: أن كلمة «حيونة» تترجم سورياً في العادة، باعتبارها سبباً وجيهاً، وجواباً مفحماً، وتقطع الطريق على متوالية من الأسئلة المحرجة، التي لن تعثر لها الوزارة على جواب.

وثانيها: لأن كلمة «حيونة» هي المفردة المناسبة لتوصيف القوانين المعتمدة في حارة «كل مين إيدو إلو»، التي ابتكرها الفنانان دريد لحام ونهاد قلعي تلفزيونياً، وتطبقها وزارة الإعلام السورية واقعياً!

وثالثها: أن استخدام كلمة «حيونة» للتعبير عن حالة وقرارات وزارة الاعلام السورية، يمثل التفسير الأكثر دقة لهذه الكلمة، بحيث أنه لو أراد أي أستاذ لغة عربية أن يعطي مثالاً يشرح فيه لطلابه الاستخدام الأمثل

لهذه الكلمة، بكامل طاقتها، وبكل دلالاتها، فلن يجد أوضح من قرارات وزارة الاعلام السورية!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 13/ 11/ 2006

شجاعة الاعتذار

للمرَّة التي لا أدري كم عددها (باعتبار رقمها تجاوز كل معلوماتي الرياضية)، يخرج علينا النائب السابق للرئيس السوري عبد الحليم خدام في آخر أحاديثه الصحفية – التي خصّ بها مجلة «الوطن العربي» – ليعيد على مسامعنا معزوفة الكف النظيف، والثوب الطاهر، والضمير النقي، والتي لكثرة ماسمعناه يرددها في الجرائد، والمجلات، والتلفزيونات، والويب سايتات، أصبحنا نشعر في كل مرّة نتعثّر بحديث للنائب المنشق، بأننا أمام مشهد فحص النظر في مسرحية «غربة»، الذي يحفظ فيه ممثلوه لوحة إشارات فحص النظر عن ظهر قلب، ويجيبون على أسئلة الطبيب الذي يقوم بفحص نظرهم، دون النظر إليها، فصرنا نعرف في أي دقيقة من دقائق أي إطلالة تلفزيونية له، سينفي علاقته بأي تهمة فساد، باعتباره كان مسؤولاً عن السياسة الخارجية فقط، ولم يستلم أي منصب له علاقة بالصفقات والرشاوى الداخلية، ونعلم في أي سطر من سطور أية مقابلة ورقية معه، سيدافع عن ثروات أبنائه، باعتبارها ربحاً حلالاً زلالاً لأعمالهم التجارية خارج سورية، ونحزر بعد كم سبيس على لوحة مفاتيح الكومبيوتر في أي لقاء انترنيتي معه، سيبرأ نفسه من تهم المشاركة بأي قرار حدّ من حرية السوريين، أو ساهم في إنقاص عددهم على وجه الأرض، وزاده في بطنها.

ومنذ أن ظهر النائب التائب على شاشة قناة العربية، معلناً انشقاقه قبل أحد عشر شهراً وحتى اليوم، كان همه الأساسي محو ذاكرة السوريين – الذين يعلمون أن عديل ابن أخت أي مختار في أقصى قرية سورية نائية،

يتربح من منصب قريبه، ولا يقتصر الأمر على صاحب المنصب فقط – وايهام مواطنيه بأنه قضى أربعين سنه من عمره، متنقلاً بين كراسي السلطة السيادية، عضواً في أكثر من قيادة، ومحافظاً لأكثر من مدينة، ووزيراً في أكثر من وزارة، ونائباً لأكثر من رئيس، لاهم له إلاّ الحفاظ على نظافة كفه، مشمراً بنطاله عن ساقيه، وماشياً على رؤوس أصابعه، ليخرج في النهاية طاهر الذيل، ويستحق أن يعثر على من يذرف دمعة على طهرانيته!

لا أجادل في حق السيد خدام في الانشقاق عن النظام الذي ساهم في بنائه، وكان أحد كبار المستفيدين منه، وأرى أن خطوته تندرج في إطار حرية وحق البشر في تغيير آرائهم، وتبديل مواقفهم، ولكني أجادل في إعلانه البراءة من كل القرارات التي اتخذت، والأموال التي أهدرت، والفساد الذي عم، والاستبداد الذي خيم على سورية طوال الفترة التي كان فيها النائب المنشق صاحب قرار، ليس في الشأن الخارجي فقط، بل وفي كل تفاصيل الشأن الداخلي، التي أعرفها كغيري من السوريين، حتى لو حاول النائب التائب الايحاء دائماً –في معرض دفاعه عن نفسه، وتبرئه من النظام– بأنه لم يكن أكثر من رجل كرسي لا يملك قراراً، وحتى لو جهد حلفاؤه في جبهة الخلاص، والمتعاطفون مع مشروعه الرئاسي المستقبلي، في ايجاد المبررات غير المقنعة، واختلاق الأعذار غير المفهومة، لتسويغ رفضه الاعتذار للشعب السوري، وخاصة بعد تصريحه الأخير لمجلة الوطن العربي، بأنه لم يقم بعمل في حياته إلا ويفتخر به، وهو كلام لو قاله رياض الترك أو ميشيل كيلو أو عارف دليلة أو أنور البني وسواهم، من الذين دفعوا سنوات من أعمارهم في السجون، لوجدنا من يحاججهم

فيه، فكيف برجل قضى نصف عمره يتنقل من البساط الأحمر، إلى السجاد العجمي، إلى أرضيات سيارات المرسيدس؟!

أخيراً أستطيع أن أفهم الظروف التي تدفع بعدوين سابقين إلى بناء تحالف سياسي، على قاعدة أن عدو عدو صديقي، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف يتحالف عدوان، أحدهما مصر على التباهي بما ارتكبه في حق الآخر، ولا أستطيع أن أفهم كيف يتوجه طرف سلطوي تحول إلى معارض لشعبه، مناشداً إياه الانتفاض على سلطته، ليس فقط من دون أن يعتذر له، بل ومصراً على الفخر بما ارتكبه بحقه عندما كان في السلطة، إلا إذا كان النائب المنشق يظن أنه يتوجه إلى شعب بلا ذاكرة!

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 18/ 11/ 2006

في مثل هذا اليوم عام 2050:
عشرة أخبار سيسمعها المشاهد العربي
من الفضائيات اللبنانية

إذا لم يكن ما يجري على شاشات الفضائيات اللبنانية من تراشق وسباب واتهامات هو الحرب الأهلية، فماهي الحرب الأهلية إذاً؟ وإذا لم يكن ما يقوم به مذيعو ومذيعات نشرات الأخبار، ومقدّمو ومقدّمات البرامج السياسية وضيوفهم في قناتي المستقبل والمنار، هو تحريض على الفتنة المذهبية، فماهو التحريض على الفتنة المذهبية إذاً؟ وإذا لم تكن مقدمات نشرات أخبار في محطات المنار والمستقبل والجديد هي البيان رقم واحد، فما هو البيان رقم واحد إذاً؟

حالة لبنان التلفزيونية اليوم أقرب إلى صورة شبكة للكلمات المتقاطعة، فلن يقدم المحقق الدولي سيرج براميرتز تقريره النهائي في قضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري إلى مجلس الأمن، ما لم تتشكل المحكمة الدولية، ولن تتشكل المحكمة الدولية ما لم يجتمع مجلس النواب اللبناني ليقرها، ولن ينعقد مجلس النواب ليقر المحكمة الدولية، ما لم تستقل الحكومة اللبنانية الحالية، وتتشكل حكومة وحدة وطنية، ولن تستقيل الحكومة وتتشكل حكومة وحدة وطنية، ما لم تجري انتخابات رئاسية، ولن تجري انتخابات رئاسية، ما لم تجري انتخابات نيابية مبكرة، ولن تجري انتخابات نيابية مبكرة ما لم تتفق ايران وسورية والسعودية وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، ولن يتفق كل هؤلاء، ما لم تحل قضيتي العراق وفلسطين، ولن تحل قضيتي العراق وفلسطين، إلا بهزيمة أحد طرفي الصراع وانتصار الطرف

الآخر، ولأن هزيمة طرف وانتصار آخر غير متوفرة في المدى المنظور، فإن أخبار الفضائيات اللبنانية ستبقى تكرر رفض الحكومة للاستقالة، ورفض المعارضة للحكومة، ورفض الحكومة والمعارضة لمبادرة عمرو موسى العربية، واختلاف الحكومة والمعارضة على صيغة المحكمة الدولية، ولذلك فإنه من المرجح أن تكون الأخبار العشرة الأكثر أهمية، في نشرات أخبار الفضائيات اللبنانية عام 2050 هي التالية:

عاشراً: رئيس مجلس الوزراء اللبناني المختلف على دستورية حكومته بين الأكثرية والمعارضة، يعلن مشاركة الصومال ومدغشقر وجيبوتي وتشاد وموريتانيا في مؤتمر (باريس 46)، وتقديمها هبات سخية للبنان تجمع من زكاة أموال مواطنيها، وفطرتهم في رمضان، وأثمان أضاحيهم في عيد الأضحى، وكشف عن أهم بنود ورقته الاصلاحية التي سيتقدم بها إلى المؤتمر، والتي ستتضمن تركيب عدادات على أحذية اللبنانيين، لفرض ضريبة القيمة المضافة على كل مسافة تزيد عن ثلاثة كيلومترات، يمشيها المواطن اللبناني يومياً، بهدف دفع تكاليف صيانة أرصفة الشوارع، وتلزيم أصحاب السيارات بدفع رسوم كهرباء الاشارات المرورية الضوئية، حتى يتسنى للحكومة استمرار تشغيلها، وخطة لخصصة الهواء في لبنان، الأمر الذي يضاعف من صلاحية استخدام الرئتين لدى المواطن اللبناني، مشيراً بأنه سيفرض رقابة صارمة على الشركات التي سترسو عليها صفقة خصخصة الهواء، ومشدداً على أن بنود ورقته الاصلاحية، لن تؤثر على مستوى حياة المواطن اللبناني!

تاسعاً: رئيس لجنة التحقيق الدولية الرابع عشر في قضية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني، يشكك بمناسبة تقديم تقريره الأول لمجلس الأمن، في

التحقيقات التي سبق لأسلافه الثلاثة عشر، الذي تداولوا رئاسة اللجنة، ويؤكد للمجلس الأمن أنه بصدد إعادة فتح الحفرة التي أحدثها الانفجار الذي أودى برئيس الوزراء اللبناني، في مطلع الألفية الثالثة، وإعادة التحقيق مع من تبقى من شهود الجريمة على قيد الحياة، متوقعاً تسليم تقريره النهائي في بداية الألفية الرابعة!

ثامناً: وزير العدل اللبناني يؤكد أن اللجنة المشكلة من قوى الأكثرية والمعارضة في لبنان، لدراسة وتعديل مشروع المحكمة الدولية في قضية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني ورفاقه قبل خمسة وأربعين عاماً، أنهت عملها باتفاق كامل بين أعضائها، وبشكل أزال كل العوائق أمام تشكيلها، والعقبة الوحيدة التي تقف أمام اقرارها، هي رفض رئيس الجمهورية تصديقها، بحجة أنه لايوقع على أوراق بيضاء فارغة قدمت إليه!

سابعاً: مجموعة من النشطاء السياسيين يطلقون في مؤتمر يعقدونه في مقر نقابة الصحافة اللبنانية، تياراً سياسياً جديداَ، يقف على مسافة واحدة من مختلف الفرقاء الألف والسبعمائة، المختلفين على الساحة اللبنانية، وسيطلق على نفسه تيار 31 شباط، مبرراً استخدامه لهذه التسمية بأن التيارات الأخرى التي ظهرت في لبنان، لم تترك له يوماً من أي أيام، أو أشهر التقويمات الميلادية، أو الهجرية، أو الصينية، أو الإيرانية، أو القذافية، لإطلاق تاريخه على تياره!

سادساً: رئيس مجلس النواب اللبناني يعلن بعد فشل طاولات الحوار، والتشاور، والتفاهم، والتوافق، والتقارب، والتحابب، والتصادق، والتوادد، والتآخي، والتناقش، والتراحم، والجدال، التي سبق ودعا إليها هو وأسلافه، لتقريب وجهات النظر بين القوى اللبنانية المختلفة، وإيجاد حلول للخروج

من الأزمة السياسية في لبنان، أنه لم تعد أمام اللبنانيين إلاّ ثلاث طاولات للجلوس والتفاهم حولها، فإما أن يجلسوا حول طاولة البلياردو، أو طاولة البينغ بونغ، أو طاولة البوكر!

خامساً: عشرات الشخصيات النيابية والسياسية في لبنان تزور مبنى تلفزيون الجديد، وتعبر عن تضامنها مع معتقليه الأربعة، الذين أودعوا أحد السجون الفرنسية بعد ضبطهم متسللين في أنابيب الصرف الصحي لمدينة باريس، في مهمة إعلامية هدفها إحضار عينات منها وتحليلها، لمعرفة نوعية الطعام، التي كان يتناولها الشاهد الملك زهير الصديق!

رابعاً: أمين عام جامعة الدول العربية متفائل بعودته إلى بيروت، حاملاً نسخة محدّثة من المبادرة السعودية الايرانية، لحل الأزمة بين السلطة والمعارضة في لبنان، بعد إدخال تعديلات ماليزية على بعض فقراتها، وأفكاراً هندية على عدد من بنودها، واقتراحات نيبالية على أولوياتها، وتبديلات كاميرونية في بعض مفرداتها، وشروحات أرجنتينية لعدد من جملها، وتصليحات كورية شمالية على صيغتها الأخيرة، بحيث أصبحت صيغة حكومة الوحدة الوطنية المقترحة في لبنان على النحو التالي 19 زائد 9 ناقص 3 ضرب 4 تقسيم 2!

ثالثاً: حزب الله يعلن في مهرجان الانتصار المابعد مابعد مابعد إلهي، الذي يقيمه مؤقتاً في الضاحية الشمالية لطرابلس، بسبب انتشار قوات اليونيفيل الدولية في شوارع وساحات الضاحية الجنوبية لبيروت، حسب القرارات الدولية 1701 و2306 و3016 و6128 و8007 و12022 و18999 و25399 و37111 الصادرة عن مجلس الأمن الدولي، أن ترسانته الصاروخية أصبحت تضم 13 مليون وسبعمائة وستين ألف

وخمسائة صاروخ!

ثانياً: نواب من تكتل الاصلاح والتغيير يعلنون في قداس أقاموه بمناسبة ذكرى رئيس التيار الوطني الحر، أنه لايزال مرشحهم الوحيد والقوي لرئاسة الجمهورية!

أما أول وأهم الأخبار التي سيتم تدولها على ألسنة مذيعي ومذيعات الفضائيات اللبنانية في عام 2050 فهو: إعلان رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، أن المحور التايواني النيوزلندي مسؤول عن تعطيل الحوار بين الأزواج والزوجات في لبنان، وتحميل رئيس تيار المستقبل القوى الحليفة لهنغاريا في لبنان مسؤلية الهجوم الفيروسي الذي أصاب كومبيوتره الشخصي، واتهام رئيس القوات اللبنانية لمن أسماهم أيتام المخابرات البيروفية في لبنان، بضلوعهم في حادث اصدام دراجة عادية بحمار في المتن الشمالي، وإصرار أمين عام حزب الله على اتهامه للحكومة اللبنانية بأنها حكومة فريد شوقي، وتأكيد زعيم حركة أمل على أن حكومة لبنان قد رهنت قرارها للمشروع التنزاني في المنطقة!

جريدة القدس العربي اللندنية، 7/ 2/ 2007

معلق سياسي.. مفت.. نائب.. داعية:
الخلطة السرية لصورة محمد حبش التلفزيونية

من بين كل المحطات الفضائية العربية والأجنبية اخترت قناة mbc 2 لأثبتها على شاشة تلفزيوني، ابتداءً من اليوم وحتى إشعار آخر، ومحوت باقي القنوات الفضائية من قائمة مفضلتي، ليس لأني أحب السينما فقط، وأفضل سيناريوهات الأفلام الأمريكية على سيناريوهات البيت الأبيض السياسية، وأحب حروب أمريكان هوليود أكثر حروب من أمريكان البنتاغون، وأستمتع بأداء جاك نيكلسون وروبرت دي نيرو وميريل ستريب أكثر من أداء جورج بوش وديك تشيني وكوندليزا رايس، ويسحرني إخراج أوليفر ستون وستيفن سبيلبرغ أكثر من إخراج دونالد رامسفيلد وجوني أبي زيد، ولكن لأني فقط باعتمادي لقناة mbc 2 سأضمن أني لن أشاهد على شاشة تلفزيوني كما أرجو، عضو مجلس الشعب السوري – التي أتمنى أن أضيف بعد ثلاثة أشهر من اليوم، وعقب انتخابات مجلس الشعب القادمة في سورية لصفته هذه كلمة السابق– فضيلة الشيخ الدكتور محمد حبش.

أنا فعلاً ومنذ صعود نجم الدكتور حبش في سماء الفضائيات العربية، لم أستطع أن أفهم السحر الذي يغري هذه الفضائيات باستضافته على شاشاتها، إلى الدرجة التي لا يمر عليها يوم إلاّ وتظهر صورته على إحداها، إما معلقاً على خبر سوري في نشرة إخبارية، أو مستفتى في برنامج ديني حول مسألة فقهية، أو مقرّباً في ندوة تلفزيونية بين المذاهب الاسلامية، أو داعية في برنامج حواري للتفاهم بين الأديان السماوية، أو

مستشاراً في حوار الحضارات الانسانية، واحتياطاً منه لأفول نجمه في أي من هذه البرامج، قام الدكتور حبش بتسجيل تلاوة تلفزيونية كاملة للقرآن الكريم (ينظر فيها إلى الكاميرا أكثر مما ينظر إلى كتاب الله بين يديه، لا لأنه يحفظه عن ظهر قلب، ولكن لأنه عاشق متيم لعدسات الكاميرا)، لأنه يريد يضمن حضوره على الشاشة، أكثر من رغبته بضمان حضوره في الجنة، وأكاد أعتقد أن أسعد أوقاته، هو اليوم الذي يعلن فيه عن وفاة أي زعيم عربي، لأنه عندها يستولي بمفرده على شاشة أكثر من محطة فضائية، لثلاثة أيام على الأقل وطوال ساعات الارسال، ممسكاً بكتاب الله يقرؤه وعينه لاتغيب عن الكاميرا، وأظن من خلال متابعتي لصورته التلفزيونية، أنه يجري تدريبات قاسية لجفنيه كي يرفان بأقل عدد مرات ممكنة أمام الشاشة، كي لايغيب بؤبؤ عينيه عن عدسة الكاميرا، ولو قدّر لأحد أن يحصي الوقت الذي يقضيه متحدثاً في نشرات الأخبار، والبرامج بمختلف أنواعها، والقنوات الأرضية والفضائية التي يظهر عبرها، لواجهه سؤال صعب هو كيف يتمكن الدكتور حبش من توزيع ساعات يومه الأربع والعشرين بين شاشات الفضائيات؟ لا كيف يتمكن من توزيع هذه الساعات الأربع والعشرين في اليوم، بين أكله، ونومه، وواجباته السياسية، والدينية، ومتابعة قضايا ناخبيه كبرلماني، رغم أنه لايغيب عن الشاشات، ولَظَنّ أن الدكتور حبش استنسخ أكثر من نسخة منه، لتوزيعها على الفضائيات العربية، ولذلك وبدافع من حرصي على الجهد التلفزيوني الذي يبذله، ورحمة بناخبيه وقضاياهم، أتمنى له أن يتعثر في انتخابات مجلس الشعب الجديدة في سورية، وأن يستبدل بآخر لديه وقت كاف لمتابعة قضايا المواطنين السوريين.

كل ماسبق كوم، وفحوى حديثه على شاشات الفضائيات كوم، فبسبب انشغال الدكتور حبش المفرط بإعطاء انطباع محايد عبر نظرات عينيه، لتبدو أقرب ماتكون لنظرات غريق أُخرج للتو من الماء، وتدريب حباله الصوتية على إصدار كلمات حديثه من أنفه، وليس من فمه، من خلال طبقة صوتية فريدة، تجمع بين حالة الابتهال وحشرجة مريض مصاب بنوبة ربو، واهتمامه بالأحرف اللثوية وإصراره على التأكيد عليها، بسبب إنشغال الدكتور حبش بذلك لايتمكن عادةً من ايجاد الحجة المناسبة التي يرد بها على أسئلة المذيع الذي يسأله، أو دحض اتهامات الضيف الخصم الذي يواجهه، ولأنه خلال وجوده أمام الكاميرا يفكر بصورته على شاشة التلفزيون، ويسأل نفسه قبل أن يُسأل: كيف ستراه عائلته، وأهل حيه، وزملائه، ورؤسائه، فيلجأ إلى أسلوب التهدئة، وعندما تضيع حججه كلها يلوذ بجملته الشهيرة، التي يندر أن يفرط باستعمالها في أي لقاء تلفزيوني له، والتي تتلخص بأن أراءه شخصية، كونه يمثل الشعب ولايمثل الحكومة، باعتباره نائباً في مجلس الشعب، أتمنى من الله أن يمنّ عليه وعلينا بانتزاع هذه الصفة قريباً منه.

وكل ماسبق بكفة، واختراع الدكتور حبش لأخبار تكذبها المصادر الرسمية، بعد فترات قصيرة من إعلانه لها بكفة، وآخرها إعلانه بأن هناك مدولات تجري داخل القيادة السورية، لإلغاء المادة الثامنه من الدستور التي تنص على أن حزب البعث الحاكم في سورية، هو الحزب القائد للدولة والمجتمع، وتعديل المادة الرابعة والثمانين التي تنظم طريقة الانتخابات الرئاسية في سورية، وتحصر الترشيح لها بالقيادة القطرية لحزب البعث، التي ترفع اسم مرشحها إلى مجلس الشعب، والذي بدوره يطرحه للاستفتاء العام

بعد موافقته عليه، والذي نفتها رسمياً في تصريحات لمراسل جريدة الحياة اللندنية في دمشق مصادر رفيعة المستوى، نقلاً عن الرئيس السوري بعد اجتماع للجنة المركزية لحزب البعث، ومن دون أن يشعر الدكتور حبش بأي حرج لتصريحه، أو يكلف نفسه الاعتذار عنه، أو حتى التوقف لفترة عن إطلالاته التلفزيونية!

أخيراً إذا كان هناك مايشفع للدكتور محسن بلال في إغلاقه لقناة الشام الفضائية، فهو أنه فوّت على الدكتور حبش فرصة وجود شاشة جديدة للظهور عليها، ورحم المشاهدين رحمة كبيرة، لاسيما وأن المعلومات تقول بأن الدكتور حبش كان سيتولى إدارة شؤون برامجها الدينية.

جريدة «القدس العربي» اللندنية، 15/ 2/ 2007

المحتويات

حكم البابا: سيرة مهنية

- كاتب صحافي وسيناريست وشاعر سوري.

- المؤهلات العلمية: دبلوم في التأهيل الإعلامي من «معهد الإعداد الإعلامي» في دمشق سنة 1982، وإجازة في النقد والأدب المسرحي من «المعهد العالي للفنون المسرحية» في دمشق سنة 1991.

- كاتب صحافي في مجلات وصحف: «فلسطين الثورة» الفلسطينية 1980، «هنا دمشق» السورية 1985 – 1987، «تشرين» السورية 1987 – 2007.

- مراسل من سورية لمجلات وصحف «الجيل» المصرية 1999، «الفن السابع» المصرية 1998 – 2000، «صباح الخير» المصرية 1998 – 2002، «القاهرة» المصرية 2000 – 2001.

- مندوب «مهرجان الإسكندرية السينمائي» في دمشق بين عامَي 1998 – 2002.

- معدّ وكاتب برنامج «على مسؤوليتي» التلفزيوني في محطة mbc 2001 - 2002.

- رئيس تحرير العدد الأخير من جريدة «الدومري» السورية، والذي صودر وأُغلقت الجريدة بسببه عام 2003.

- كاتب متعاقد مع جريدة «القدس العربي» اللندنية بين عامَي 2005 – 2007.

- المحرّر السينمائي لموقع «العربية نت» الالكتروني بين عامَي 2006 - 2008.

– مسؤول الملف السوري في قناة «العربية» خلال تغطيتها للثورة السورية 2011 - 2012.

– المشرف العام على تظاهرة «وطن يتفتَّح في الحرية: كتّاب وفنانون سوريون مع الثورة» في الدوحة 2012.

– مساهمات صحافية في مجلات وصحف مثل «النهار» اللبنانية، «العرب اليوم» الأردنية، «المحاور» اللبنانية.

الكتب المنشورة:

– عصيان، مجموعة شعرية، 1982.

– مرَّ من هنا، مجموعة شعرية، 1984.

– أكبر من جحيم... أصغر من تنّور، مجموعة شعرية، 1985.

– عم صباحاً أيها الشقي، مجموعة شعرية، 1985.

– سورة ريم، قصيدة، 1986.

– سيرة العائلة، مجموعة شعرية، 1989.

– ما تبقى من كلام، مجموعة شعرية، 1991.

– أحلام أبو الهنا، سيناريو تلفزيوني، 1997.

– كتاب في الخوف: شاهد عيان على الصحافة السورية، طبعة أولى نيسان 2005، طبعة ثانية أيلول 2005، طبعة ثالثة 2013 (دار الغاوون).

– وطن بالفلفل الأحمر، طبعة أولى 2007، طبعة ثانية 2013 (دار الغاوون).

– معارك صحافية: من الثقافة إلى السياسة، طبعة أولى 2012 (دار الغاوون).

الأعمال الدرامية المصوّرة:

– سبع طوابق، سهرة تلفزيونية، إنتاج: تحسين القوادري، 1993.

– عائلة خمس نجوم، مسلسل تلفزيوني، 30 حلقة، الشام الدولية للإنتاج السينمائي والتلفزيوني، 1993.

– أحلام أبو الهنا (بالاشتراك مع سلمى كركوتلي)، مسلسل تلفزيوني، 30 حلقة، 1996.

– حياة على طريقة الكومبيوتر، سهرة تلفزيونية، 1999.

– عائلتي وأنا، مسلسل تلفزيوني، 33 حلقة، 2000.

– قلة ذوق وكترة غلبة، مسلسل تلفزيوني، 40 حلقة، 2002.

– أيام الولدنة، مسلسل تلفزيوني، 28 حلقة، 2005 – 2006، حاصل على خمس جوائز (ذهبية أفضل عمل كوميدي، أفضل سيناريو، أفضل إخراج، أفضل ممثل دور أول، أفضل ممثل دور ثانٍ) في «مهرجان القاهرة للإعلام العربي – 2008».

الجوائز:

– جائزة أفضل سيناريو عن مسلسل «أيام الولدنة» في «مهرجان القاهرة للإعلام العربي»، 2008.

البريد الالكتروني: hakambaba@hotmail.com